قصة سيدنا

آدم عليه السلام

للإمام الحافظ
أبي الفضل عبد الله بن الصديق الغماري الحسني

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة الجليل والمحدث النحرير
سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني

اسمه وكنيته:

هو سليل العترة النبوية الطاهرة الشيخ العلامة المحدث الفقيه الأصولي المفسر اللغوي المسند الشاعر الحافظ المجتهد وريث المعقول والمنقول وحيد عصره وسيد مصره ولي الله الصالح بلا نزاع سيدي ومولاي أبو الفضل عبد الله ابن العلاَّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن الولي الكبير سيدي محمد الصديق الغماري الطنجي.

نسبه:

يعود نسبه من جهة الأب والأم إلى سيدنا إدريس الأصغر ابن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن سيدنا علي وفاطمة عليهما السلام كما هو مدون في كتب التراجم وأمه حفيدة الولي الصالح سيدي أحمد بن عجيبة شارح الحكم العطائية.

مولده:

وُلد رحمه الله تعالى في آخر يوم من جمادى الآخرة أو غرة رجب عام 1328 هجري الموافق 8 يوليو 1910 رومي بثغر طنجة.

نشأته ورحلاته:

نشأ رحمه الله في رعاية والده رحمه الله فتعلم على يديه مبادئ العلوم الشرعية وبه تأسس واستأنس، وكرع من حياضه وتأدب بآدابه، وبحضرته جالس العلماء الأفذاذ والصالحين فحفظ القرءان ثم شرع في حفظ بعض المتون ومعظم منظومة الخراز المسماة "مورد الظمآن" وجملة كبيرة من الألفيَّة والأربعين النووية والأجرومية، قرأ بلوغ المرام

ومختصر الشيخ خليل، ثم قرأ شرح الأزهري على الأجرومية على أخيه أبي الفيض، وحلَّ قبل ذلك عباراتها حلاً موجزاً على خاله السيد أحمد بن عبد الحفيظ بن عجيبة.

الرحلة إلى فاس:

ثم سافر رحمه الله إلى فاس بأمر والده لطلب العلم في جامعة القرويين وهي من الجامعات المعدودة في العالم الإسلامي مثل الزيتونة والأزهر والنظامية فقرأ فيها اثني عشر فناً من الفنون الشرعية المتعارف عليها في تلك الجامعات العريقة – والتي يؤمر بتحصيلها كل عالم– مثل: شرح المكودي مع حاشية ابن الحاج وشرح ابن عقيل وحاشية السجاعي وشرح الخرشي على مختصر خليل وشرح البخاري للقسطلاني والمحلي على جمع الجوامع في الأصول والتوحيد لابن عاشر ورسالة الوضع وشرح القويسني على السلم.

وفي أثناء إقامته في فاس اجتمع بالسيد محمد بن جعفر الكتاني، وأجازه السيد مهدي العزوزي الذي يروي عن السيد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة 1205 هجري بواسطتين.

ثم رجع إلى طنجة بعد أن كرع وتضلَّع وصار مقدَّماً على جميع أقرانه فدرَّس بالزاوية الصديقيَّة واجتمع عليه الناس وظهرت عليه آثار الصلاح والتحقيق والنظر.

الرحلة إلى مصر:

وفى أواخر شهر شعبان عام 1349 هجري الموافق لها 1930 رومي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف ومن الجدير بالذكر انه حلَّ عليه عالماً متضلعاً متقناً دون أن يُظهر ذلك تواضعاً للعلم وأهله وطاعةً لوالده تكسوه آداب طالب العلم فكرع من حياض العلم التي تجعل من طالب العلم في عُرف الأزهر عالماً وهو ما لا بد من تحصيله قبل التصدر للعلم في مصر ومما يعرف في مصر أن المتصدر للعلم إن لم يشهد له

الأزهر بذلك لا تقبل أقواله وهذا مما هو جليٌ في مصر والزيتونة في تونس فقرأ شيخنا شرح الملوي على السلَّم وحاشية الصبَّان وجمع الجوامع بشرح المحلي والرسالة السمرقنديَّة في آداب البحث والمناظرة وشرح الأسنوي على منهاج الأصول للبيضاوي وتهذيب السعد بشرح الخبيصي في المنطق.

ثم اتجه للفقه الشافعي تنفيذًا لأوامر والده فحضر في المنهج للشيخ زكريا وشرح الخطيب على أبي شجاع وحضر دروس الشيخ محمد بخيت المطيعي في التفسير والهداية في الفقه الحنفي وفي حاشيته على شرح الأسنوي على منهاج الأصول وأجازه إجازة عامة.

ولمزيد حرصه على تحصيل العلوم الشرعية كان يؤم بيوتات العلماء وكذلك نزولاً عند رغبة والده ألا يدع عالماً إلا ويجلس بين يديه فسخرت له الأسباب وفتحت له الأبواب وكان مقبولاً عند الخواص والعوام ويدل ذلك على صلاحه وعلو كعبه ودرجة القبول، وتقدَّم لامتحان العالمية (عالمية الغرباء) فحصل عليها، ثم حصل على عالمية الأزهر والامتحان فيها في اثني عشر فنَّاً فنجح بدرجة ممتاز حتى أن شيخ الأزهر قال عنه: "إن الأزهر ليفتخر بحصول الشيخ عبد الله على شهادة العالمية".

تدريسه:

درَّس شيخنا رحمه الله جمع الجوامع بشرح المحلي وشرح الملوي على السلَّم، وسُلَّم الوصول إلى علم الأصول لابن أبي حجاب، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري، وشرح المكودي على الألفيَّة، وتفسير النسفي، والأحكام للآمدي، والخبيصي على تهذيب السعد في المنطق، وتفسير البيضاوي.

شيوخه:

تلقى شيخنا صاحب الترجمة العلوم على أكثر من مائتي عالم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

شيوخه من المغرب:

1- والده علاَّمة المغرب السيد محمد بن الصديق رحمه الله تعالى.

2- أخوه الحافظ العلاّمة أبو الفيض أحمد.

3- العلاَّمة الشيخ القاضي العبّاس بن أبي بكر بناني.

4- العلاّمة أبو الشتاء بن الحسن الصنهاجي.

5- العلاَّمة عبد الله الفضيلي.

6- العلاَّمة السيد عبد الرَّحمن بن القرشي العلوي.

7- الشريف الحبيب المهاجي.

8- المحدِّث عبد الحي الكتاني.

9- العلاَّمة السيد محمد المكِّي بن محمد البطاوري.

10- السيد المهدي بن العربي بن الهاشمي الزرهوني.

11- الملك إدريس بن محمد المهدي ابن العلاَّمة محمد ابن علي السنوسي الشريف الحسني.

12- القاضي المسند الكبير عبد الحفيظ بن محمد بن عبد الكبير الفاسي الفهري.

13- العلاَّمة الأثري الصوفي أبو القاسم بن مسعود الدبَّاغ.

14- العلاَّمة المحدّث السيِّد محمد بن إدريس القادري الحسني الفاسي.

تونس:

شيخ جامع الزيتونة الشيخ طاهر بن عاشور التونسي المالكي.

مصر:

1- الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي.

2- مسند العصر الشيخ أحمد بن محمد بن عبد العزيز ابن رافع الحسيني الطهطاوي.

3- الشيخ محمد إمام بن برهان الدين إبراهيم الشهير بالسقّا الشافعي.

4- الشيخ محمد بن إبراهيم الحميدي السمالوطي المالكي.

5- الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الدلبشاني الموصلي القاهري.

6- السيد بهاء الدين أبو النصر بن أبي المحاسن القاوقجي الطرابلسي.

7- الشيخ محمد الخضر بن حسين التونسي.

8- العلاَّمة الشيخ محمد دويدار الكفراوي التلاوي الشافعي.

9- الشيخ عبد المجيد بن إبراهيم بن محمد اللبَّان.

10- الشيخ عبد الواسع بن يحيى الصنعاني اليمني.

11- الشيخ محسن بن ناصر باحربه اليمني الحضرمي الشافعي.

12- الشيخ عبد الغني طموم الحنفي.

13- الشيخ محمد بن إبراهيم البيلاوي المالكي.

14- الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري.

15- الشيخ محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوي المالكي.

16- الشيخ عبد المجيد الشرقاوي.

17- الشيخ محمد عزت.

الحجاز:

1- الشيخ المحدث عمر حمدان المحرسي.

2- الشيخ المحدث عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي.

3- الشيخ المعمّر محمد المرزوقي بن عبد الرحمن أبو الحسين المكّي الحنفي.

4- العلاَّمة عبد الباقي بن مُلا علي بن مُلا محمد معين اللكنوي الأنصاري المدني الحنفي.

الشام:

1- الشيخ محمد سعيد بن أحمد الفرا الدمشقي الحنفي.

2- العلاَّمة الورِع بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي الشافعي شيخ دار الحديث بدمشق.

3- الأستاذ الشيخ عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقي.

4- الشيخ محمد راغب بن محمود الطبَّاخ الحلبي الحنفي.

5- الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي البيروتي.

6- الشيخ عطاء بن إبراهيم بن ياسين الكسم الدمشقي الحنفي.

شيوخه من النساء:

أم البنين آمنة بنت عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقيّة.

مؤلّفاته:

ألَّف شيخنا رحمه الله العديد من المصنَّفات كلها نافعة نفيسة مفيدة تدل على بُعدِ نظره وعمق غوصه في عويص المسائل مما جعله يلحق بركب السلف من حيث الفهم والاستدلال وطريقة التأليف بل فاق الكثير منهم، والدليل على ذلك أنه ألف كتباً لم يسبق إليها نذكر منها:

1- بِدَعُ التفاسير.

2- ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة.

3- الفوائد المقصودة ببيان الأحاديث الشاذة المردودة.

وله أقوال انفرد بها عن كثير من العلماء، وله تحقيقات لم يسبق إليها مع تواضع قلَّ نظيره، ومن اطلع على كتابه الرد المحكم المتين عَلِمَ قيمة هذا العالم وعظيم قدره، وتضلعه في الرد والبحث والمناظرة وإعطاء المسائل حقها، ومن صور تواضعه التي تدل على صلاحه تنبيهه على أخطائه التي وقع فيها وتراجعه عنها.

طلابه:

مما يجدر الإشارة إليه أنه لا يوجد على البسيطة اليوم عالمٌ معتبرٌ يشار إليه بالبنان من أهل السنة والجماعة وغيرهم إلا وجلس بين يديه أو انتفع بكتبه، فمنهم من حفظ الأمانة وأعطى الشيخ حقه وأحال إلى كتبه، ومنهم من ضيع الأمانة ونسب الأقوال إلي نفسه أو لم يحل إلى كتب الشيخ.

مواقفه:

للشيخ رحمه الله عدة مواقف، منها ما هو علمي حيث تصدى لكثيرٍ من الآراء التي لا تصلح أن تصدر من عامي زيادة على أن تصدر من عالم كموقفه من نزول سيدنا عيسى عليه السلام راداً فيها على أحد كبار مشايخ الأزهر، وكذلك رده على البناني في معنى الإله، وكذلك رده على القائلين بالهجر بلا علة لازمة، والهجرة إلى بلاد الكفار، وكذلك على عدم فهم كثير من المعاصرين علة تحريم نساء أهل الكتاب، وكثير من هذه المواقف العلمية مما يطول ذكرها.

وأما ما ابتلي به الشيخ من علماء السوء فيصعب أن يتحمله إنسان، ويكفي في ذلك المحنة التي أودت بالشيخ إلى السجن الانفرادي مدة خمسة عشر سنة تقريباً مع الكيد ومحاولة إعدامه، ولكن الله ناصرُ أوليائه وهو يفعل ما يشاء ويختار وتلك سنة الأنبياء والمرسلين وذلك نهج الأولياء والصالحين.

وفاته:

توفي رحمه الله عام 1413 هجري الموافق 1993 رومي بطنجة ودفن فيها قرب والده.

نفعنا الله بعلومه وأفاض علينا من بركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

تنبيه:

نلفت عناية القارئ الكريم أننا قد حرصنا بأن نطرح الكتاب على موقعنا كما هو من غير زيادة أو نقصان إلا ما كان من قبيل ترجمة المؤلف لكي يكون القارئ على بينة من هذا العالم الرباني على أن لا يمتنع أن يُلاحظ بعض القُراءِ أن ما في الكتاب لا يتوافق مع آرائهم التي يحملونها لذا نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب أن يكون منصفاً ناصراً للحق، وإذا ما وجد خطأً فليصلحه في الهامش ويبين ذلك ولا يمس أصل الكتاب فقد قال الشاطبي في حرز الأماني:

وإن كـان خرقٌ فادركه بفضلة من الحلم وليصلحه من جاد مقولا

إعداد:

قسم البحوث والدراسات

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم الشرعية – فلسطين

13 ربيع الأنور 1435 هجري الموافق 14 يناير 2014 رومي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾

اللهم صلِّ وسلم على نبيك المصطفى، ورسولك المرتضى، سيدنا محمد سيد ولد آدم، ورحمتك المهداة إلى جميع العالم، وارضَ اللهم عن آله وعترته وصحابته، وعن كل من اتبع هديه وسلك نهج شريعته.

تقديم

عنى القرآن الكريم بقصص الأنبياء عناية بالغة، يدل عليها ذكره للقصة ثم إعادتها مرتين أو أكثر بأساليب – وإن اختلفت بالإجمال والتفصيل– تتشابه في إشراق الديباجة، ونُصُوعِ اللفظ، وسمو المعنى، وجلال العبرة، وهذا من الأدلة على أنه كلام الله جلَّ علاه؛ لأنه لا يتيسر لشخص – كيفما كانت فصاحته– أن يكتب قصة واحدة مرتين تتساوى أجزاؤها في قوة الأسلوب، وبلاغة التعبير.

ومن الحكمة في تكرير القصة في الكتاب الكريم – إلى جانب الإعجاز الذي تتضمنه– تثبيت القلب، وتقوية الإيمان فيه، وتمكين العظة منه، والثقة بنصر الله لعباده المخلصين المُصْلِحين والتأسِّي بالصفوة المختارة من المُقرَّبين، هذا إلى ما تفيده من أحكام شرعية، ومسائل علمية، وأخلاق كريمة، وآداب قويمة، ومعرفة بِسِيَر الماضين، تُمَكِّن من درس أحوالهم وعاداتهم، وما اعتراهم من تقلبات الكون، وحوادث الزمان.

تلك مقاصد في الذكر الحكيم، قَلَّمَا يعرض لغيرها مما يعتبر من المُتَمِّمَات، ولا يدخل في الصميم، لكن إذا ورد بيانه على لسان النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم – في حديث صحيح أو حسن– كتسمية صاحب موسى بالخِضْر، وفتاه بيوشع، عليهم السلام، لم يكن بُدٌّ من قبوله والتصديق به، وليس من الجائز رده بعذر من الأعذار كما فعل بعض[1] المعاصرين لأنه ابتداء وفسوق، وهو بالتالي رد لكلام الله تعالى حيث

---

[1] فمنهم من ردَّ الحديث الوارد في الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال هو "الخِضْر" وذكر قصته مع موسى عليهما السلام، وهذا الحديث بلغ حد الشهرة والاستفاضة، ومع ذلك رده بعض الجهلة الأزهريين بدعوى أنَّ القرآن لم يُعَيِّن الخِضْر، ولا يوشَع فتى موسى، وهو جهل بالقواعد الأصولية، وانحراف عن السنة النَّبويّة، ومثله في ذلك رد الشيخ عبد الوهاب النجار بعض الأحاديث في الصحيحين بدعوة أنها آحاد لا تفيد اطمئنان القلب، وسنعرض لدحض دعواه بالتفصيل في مواضعها من هذه القصص إن شاء الله، بل ذكر في القواعد التي سار على ضوئها في (قصص الأنبياء) قاعدتين هما: رقم (4) ونصها: "الخبر إذا كان رواته آحادًا فلا يصلح أن يكون دليلًا على ثبوت الأمور الاعتقادية لأنَّ الأمور

وكَّلَ لنبيِّه عليه السلام بيان ما نزل في الذكر الحكيم: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

=الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظَّنِّي الثبوت أو الدَّلالة لا يفيد القطع". ورقم (7) ونصها: "المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد لأنَّ المطلوب فيها اليقين، وخبر الآحاد لا يقين فيه"، وعلى أساس هاتين القاعدتين استباح لنفسه أن يَرُدَّ الأحاديث الصحيحة الثابتة في الكتب الستة وغيرها وقد يكون رده – في بعض الأحيان مصحوبًا بسخرية من الحديث المردود في نظره، وتلك وقاحة قبيحة. أضف إلى ذلك أنَّ تينك القاعدتين بالإطلاق الذي أراده بهما يخالفان إجماع العلماء، ولا يسندهما شيء من القواعد، ذلك لأن الاعتقاديات على ثلاثة أقسام: **إلهيَّات** وهي ما يتعلق بالإله سبحانه وتعالى وجوبًا واستحالة وجوازًا، و**نبويَّات** وهي تتعلق بالأنبياء والملائكة كذلك، **وسمعيَّات** وهي تتعلق بما بعد الموت من حشر وحساب وعذاب ونعيم وما إلى ذلك، فالإلهيات يعتمد قسم الواجب منها على الدليل القطعي، وأما قسم الجائز فيكتفي فيه بالخبر الصحيح، لأنه فرع عن ثبوت القدرة لله تعالى، وشمولها لكل مقدور، وقد أثبتهما الدليل القطعي في قسم الواجب، والنَّبويَّات يعتمد منها على الدليل القطعي شيئان: إثبات النبوة وحاجة الناس إليها، وإثبات نبوة شخص معين، أو تعيين ملك بالذات، فلا تجزم بأن شخصًا نبيّ، أو من الملائكة إلا إذا ثبت بالخبر الذي يفيد اليقين، وأمَّا المعجزات وسائر السمعيات فيكتفي فيها بالحديث الصحيح بلا نزاع بين أهل السنة، لأنهم أجمعوا على أن ما جازف العقل وورد بوقوعه السمع وجب قبوله وحمله على ظاهره، وممن صرح بهذا: القاضي أبو بكر ابن العربي في (الأحكام)، والقاضي عياض في (الشفا)، و(شرح مسلم)، والإمام النووي في (شرح مسلم)، والإمام ابن المنير في (حاشية الكشاف)، والحافظ ابن حجر في (شرح البخاري)، والعلامة السنوسي في (شرح الكبرى)، وغيرهم، وصرَّح الحافظ ابن كثير في مقدمة تاريخه أن الاعتماد والاستناد في ما يذكر من مبدأ الخلق، وأخبار الأنبياء، وأشراط الساعة وأحوال القيامة، وصفة الجنة والنار على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما صح نقله أو حسن. وسبقه إلى هذا المعنى أيضًا الحافظ البيهقي في كتاب الاعتقاد، ودلائل النبوة، والأسماء والصفات، بل هو إجماع كما أسلفنا، ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم أثبت نُبوَّة نبينا عليه السلام ونُبوَّة غيره من الأنبياء، وسجّل معجزاتهم التي تحدُّوا بها قومهم، فكل معجزة بعد ذلك روتها كتب السنة صادرة عن أحد الأنبياء – ومنهم نبينا– عليهم السلام، لا يشترط فيها اليقين لأنها لم يقع بها تحدي، ولا توقف عليها إثبات نبوة، فلهذا أجمع أهل السنة على الاكتفاء فيها بخبر الآحاد إجماعًا عمليًا مستمرًا تَلَقَّاه الخلف عن السلف وحذا فيه الآخر حذو الأول، على أن خبر الآحاد المحدث بالقرائن – ومنه خبر الصحيحين– يفيد اليقين عند جمهور المحققين، ولم يأت من خالفهم بحجة ناهضة، وانظر كتابنا "عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام".

"**تنبيه**" الأمر الخارق للعادة إذا وقع به التحدي كناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى، والقرآن الكريم، سمي معجزة وإذا لم يقع به التحدي كالخوارق المروية في كتب السنة عن كثير من الأنبياء سمي آية، ففرق الله بين الآية والمعجزة، فرق ما بين الأَعَمِّ والأَخَصّ فكل معجزة آية دون عكس؛ قاله العلامة الأبّي في (شرح مسلم) في الكلام على حديث رد الشمس ليوشع وقد علمت مما قدمنا أنَّ الذي يطلب فيه اليقين هو المعجزة لا الآية، والله تعالى أعلم.

مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون ﴾(النحل: 44)، ومن المُسَلَّمِ به أنَّ أخبار المعصوم لا يمكن احتمال تطرق الخطأ إلى شيء منها، كما قيل باحتمال ذلك في اجتهاده عليه السلام، على رأي[1] شاذ لبعض العلماء، لأن دخول الخطأ في الخبر لا يكون إلا عن غفلة، أو قلة ضبط، والعقل يقضي بنفيهما عنه عليه السلام، نفيًا جازمًا، أمَّا ما جاء في الإسرائيليات فمن المحتم رده إذا خالف ظاهر القرآن، أو ما ثبت في السنة، وإن وافقهما فالاعتماد عليهما دونه، وقد يستأنس بما ينفرد به دونهما إذا كان يدخل في باب الوعظ وترقيق القلوب، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: خَوِّفْنَا يا كعب!، وقد انتقد كثير من كتب التفسير – كتفسير الخازن– لحشرها كثيرًا من الإسرائيليات، وإقحامها في تفسير جمل من الآيات، وهو انتقاد صادف محله، لا سيما إذا لاحظنا أن فيها مخالفة للمعقول ومساسًا بمقام الأنبياء عليهم السلام، مثل ما جاء فيها عن مرض أيوب، وفتنة داوود وخاتم سليمان، وغير ذلك مما رسخ في أذهان قراء تلك التفاسير حتى ارتقى إلى درجة اليقينيات أو المسلمات بحيث لا يجري على لسانهم ذكر نبيّ في محاضرة أو محاورة، حتى ترتسم في مخيلتهم صورته ملفوفة في إطار من تلك الخرافات، مع أنهم لو تأملوا سياق القرآن لوجدوه ينفي أغلب ما نقلوه، أو لا يفيده على أقل تقدير، ومِمَّا لا جدال فيه أنّ مقام الأنبياء لا يجوز أن يوصم بما يخدش العصمة، ولا ينبغي أن تؤول أعمالهم بما يُنْزِلُها عن درجة القدوة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(الأنعام: 90)، فعلى الباحث أن يُراعي ذلك كل المراعاة، مضافًا إلى وجوب التقيد بظاهر القرآن، وصحيح الأحاديث...

---

[1] وأشار التاج السبكي في (جمع الجوامع) إلى خطأ هذا الرأي الشاذ، بقوله: "والصواب أنَّ اجتهاده عليه السلام لا يُخطئ، ومن الإجرام القبيح ما هذى به بعض مبتدعة الأزهر في كتيب آثم سماه (اجتهاد الرسول)، ولو أراد مستشرق أن يطعن في الرسول عليه السلام ما استطاع أن يطعن بأكثر ما فعل ذلك المبتدع الجاهل، وقد شرعت في دحض مفترياته، وكشف سوآته".

وهذه سلسلة من قصص الأنبياء وافية بالشروط السابقة، خالية ممن انتقد على غيرها من كتب القصص والتفسير، حالية بتحقيقات رائقة ونكات شائقة، استنبطناها – بفضل الله– من مكنون الآيات القرآنية ومضمون الأخبار النبوية، وتناولنا بعض ظواهر النصوص بما يزيل عنها الغموض، ويجلي الإشكال، وكشفنا ما انحدر فيه بعض المعاصرين من انحراف عن الجادة، وميل عن الصواب، عامدين إلى تحقيق البحث العلمي مجردًا عن الانحياز لرأي معين ما لم يسنده دليل، مستمدين من الله التوفيق فيم نقصد إليه.

ونبتدئ الكلام على قصة آدم عليه السلام، بما يجد القارئ تفصيله في الفصول التالية.

قبل خَلْقِ العَالَم

كان الله ولم يكن شيء غيره، فلم يكن زمان ولا مكان، ولا قُطْر ولا أوان، ولا عرش ولا مُلْك، ولا كوكب ولا فلك، ثمّ أوجد العالم من غير احتياج إليه، ولو شاء ما أوجده، فهذا العالم كله بما فيه من جواهر وأعراض حادث عن عدم! ليس فيه شائبة من قِدَم، حسبما اقتدته قضايا العقول، وأيَّدته دلائل النُّقول وأجمع عليه المليون قاطبة إلا شذاذًا من الفلاسفة قالوا بقدم العالم، وهم كفار بلا نزاع، قال ابن حزم في مراتب الإجماع: "باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع: اتفقوا أن الله عز وجل وحده لا شريك له، خالق كل شيء غيره، وأنَّه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كلَّها كما شاء وأنَّ النفس مخلوقة والعرش مخلوق والعالم كله مخلوق"ا.هـ. ونازعه[1] بعض العلماء في هذا الإجماع القطعي لزعمه الفاسد: وجود حوادث لا أول لها، يعني بذلك قِدَم العالم بالنوع، وهذا من مستشنع المسائل المنسوبة له، كما قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري).

[1] قال خادم العلم الشريف أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام الحسيني المالكي التونسي الفلسطيني: "ويقصد الشيخ بهذا المنازع ابن تيمية لأنه هو القائل بوجود حوادث لا أول لها وذلك في كثير من كتبه مثل: (نقل مراتب الإجماع) و(صريح المعقول لصحيح المنقول) و(منهاج السنة النبوية) ... إلخ"ا.هـ.

أول المخلوقات

في (صحيح البخاري) عن عمران بن حصين عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كلَّ شيء ثمّ خلق السماوات والأرض ﴾، قال العلماء: المراد بكان في الجملة الأولى الأزلية، وفي الثانية الحدوث بعد العدم، وفي (صحيح مسلم) عن عبدالله بن عمرو عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ﴾، وفي (مسند الإمام أحمد) عن أبي رزين العقيلي مرفوعًا: ﴿ إن الماء خلق قبل العرش ﴾ صححه الترمذي، يؤخذ من هذه الأحاديث أن أول المخلوقات الماء ثم العرش ثم القلم لأن الكتابة حصلت بعد كون العرش على الماء، بل جاء ذلك صريحًا فيما رواه ابن شاهين في (الصحابة) عن نافع بن زيد الحميري أنه أتى مع وفد اليمن – غير الأشعريين– إلى النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فسألوه عن أول هذا الأمر؟ فقال: ﴿ كان الله لا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق القلم، فقال: أُكْتُب ما هو كائن، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن ﴾ فهذا صريح في ترتيب المخلوقات، ولا يعارضه ما رواه أحمد وصححه الترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: ﴿ أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ﴾ لأن أولية القلم إضافية بالنسبة لما عدا الماء والعرش، أو المراد: أول ما خلق الله من نوع ما يكتب به، فهي أولية نوعية. ولم يصح غير هذا في ترتيب المخلوقات عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فلا نجزم فيه بشيء، ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى.

وروى البيهقي وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾(هود: 7) على أي شيء كان الماء؟ قال: "على متن الريح"،

وروى البيهقي أيضًا عن مجاهد قال: "بدأ الخلق العرش والماء والهواء، أما حديث: ﴿ أول ما خلق الله العقل ﴾، فهو حديث واهي بجميع طرقه، لا يصح اعتماده، وعلى فرض ثبوته فهو مؤول بنحو ما أولت به أولية القلم، وكذلك لم يصح أن أول المخلوقات اللوح المحفوظ، أو الروح، وحديث ﴿ أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ﴾ ذكره غير واحد من أصحاب السير والمولد النبوي، وعزوه إلى عبد الرزاق والبيهقي في الدلائل، وهو عزو غلط فلا وجود له فيهما، ونص السيوطي في الحاوي على أنَّه ليس له إسناد يعتمد عليه، وأزيد على ذلك أنه حديث موضوع، وقفت عليه في كتاب (تلقيح الأذهان ومفتاح معرفة الإنسان) لمحي الدين ابن العربي[1] فإذا هو حديث طويل ركيك، يجزم من يقرأه ببطلانه وكذلك حديث: ﴿ كنت نورًا بين يدي ربي قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام ﴾ هو موضوع وإن روي من طريق زين العابدين عن أبيه عن جده عليهم السلام، فإن الآفة فيه ممن قبل زين العابدين، وهو مكذوب عليه، نعم، صَحَّ في الحديث من طرق أنه عليه السلام كان نبيا وآدم بين الروح والجسد، وهو يفيد تقدم خلق روحه الشريفة وإفاضة وصف النبوة عليها قبل نفخ الروح في آدم، ومن حمل ذلك على ثبوت العلم بنبوته فهو مخطئ من عدة وجوه بينتها في "**الأحاديث المنتقاة في فضائل رسول الله**" أوضحها أن المخلوقات كلها ثابتة في علم الله أزلًا، فلا معنى لتخصيص النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، ومن اللطائف قول الحافظ ابن رجب في (لطائف المعارف): "وسمّاه الله مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فقيل سراجًا للمؤمنين في الدنيا ومنيرًا للمذنبين يوم القيامة في

---

[1] بال كما هو مكتوب بخطه على أجزاء من الفتوحات المكية بدار الكتب المصرية وكما قرأته بخطه على أجزاء حديثية، ولأن أهل الأندلس يسمون "العربي" كما لا يزال المغاربة يسمون بذلك إلى الآن، أما الذين يقولون: ابن عربي، فهم واهمون ويزعم بعضهم أن هذا للفرق بينه وبين ابن العربي المعافري المالكي، وهو وهم على وهم، وقد وقع في هذا الوهم كثيرون منهم صاحب القاموس.

الشفاعة، وسُمِّي سراجًا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينقص من نوره شيء، كذلك خلق الله الأنبياء من نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينقص من نوره شيء"ا.هـ.

عناصر المخلوقات

في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ خلقت الملائكة من نور وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم ﴾، وأخرج عبد الرزاق وإسحق بن راهويه والحاكم والبيهقي عن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو فسأله: ممّ خُلِقَ الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال الرجل: فممّ خُلِقَ هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو، قال: فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله: مِمَّ خُلِقَ الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال الرجل: فممّ خُلِقَ هؤلاء؟ فتلا عبد الله بن عباس: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾(الجاثية: 13) فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من بيت النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال البيهقي: "أراد أنَّ مصدر الجميع منه، أي من خلقه وإبداعه واختراعه، خلق الماء أولًا، أو الماء وما شاء من خلقه لا عن أصل، ولا على مثال سبق، ثم جعله أصلًا لما خلق بعده"ا.هـ. والخلاصة أنَّ الله أوجد هذه العناصر من عَدَم ثم جعلها مادة لما سواها من المخلوقات.

الملائكة

مخلوقون من نور كما سبق، وهم أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة غير زرية[1]، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ولا ينامون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون عباد الله مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، رسلٌ معصومون[2] لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾(فاطر: 1)، وهم كثيرون لا يحصيهم العد: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(المدثر: 31)، مسكنهم السماوات وما فوقها إلى سدرة المنتهى، وينزلون إلى الأرض لتنفيذ ما أمروا به من أعمال، لا يضعفون ولا يهرمون، ولا تعتريهم آفة من الآفات، ولا يموتون إلا عند النفخة الأولى نفخة الموت لجميع الأحياء في ذلك الوقت، وهم أفضل من جميع البشر خواصهم وعوامهم إلا الأنبياء، ومن زعم أن بعض البشر – غير الأنبياء– أفضل منهم أو من بعضهم فقد أخطأ خطأ كبيرًا، وحاد عن الصواب، ومن زعم أن لا عقل لهم أو نفى عنهم الاختيار فقد دخل في الضلال من أوسع باب.

ومن الخرافات: ما يحكى في بعض الكرامات أن ولي الله سيدي عبد الرحيم الغماري الشهير بالقنائي رضي الله عنه شفع إلى الله في ملك استشفع به، فقبل الله شفاعته!!! ومقام سيدي عبد الرحيم في غير حاجة إلى هذه الترهات، ولكن قاتل الله الغلو

---

[1] فلا يظهر الملك في صورة كلب أو ثعبان مثلًا، بخلاف الجن فإن أغلب تشكلهم في صورة زرية.

[2] وكثير من الأشاعرة يزعم عدم عصمتهم، وهو خطأ كبير، وإذا تتبعت آيات القرآن وجدته يشفع ذكر الملائكة بالثناء عليهم، ومدحهم بالطاعة لله، والانقياد لأوامره ولم ينسب إلى واحد منهم تقصيرًا أو عصيانًا، والسنة على منوال القرآن في ذلك، فلم يذكر ملك في حديث صحيح إلا مقرونا بالتعظيم والتبجيل، إلا هاروت وماروت ففي كونهما من الملائكة خلاف، وعلى القول بكونهما ملكين فما ذكر في قصتهما مع الزهرة من نسج الإسرائيليات، وإن رفعت أحاديث بذلك إلى النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فرفعها خطأ من بعض الرواة، وسنبين ذلك في محله من هذه القصص بحول الله.

والجهل، وليس لأحد أن يحتج في نفي العصمة عنهم بقصة هاروت وماروت فإنها من نسج خيال الإسرائيليات، وسيأتي بيان ذلك في موضعه بحول الله تعالى.

الجن

مخلوقون من مارج من نار، أعطوا قدرة التشكل على أشكال مختلفة يتناكحون ويتناسلون، وإبليس أبو الجن، ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾(الكهف: 50)، فيهم المسلم والكافر والطائع والعاصي، طائعهم يثاب[1] بالجنة، وعاصيهم يعاقب بالنار، وقد ذكر شيء من أحوالهم في سورتي الرحمن والجنّ، واختلف في جواز التزاوج بينهم وبين الإنس عقلًا والراجح إمكانه، قال الثعالبي: زعموا أن التناكح والتلاقح قد يقعان بين الإنس والجن، قال الله تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾(الإسراء: 64)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إذا جامع الرجل امرأته ولم يُسَمِّ انطوى الشيطان على إحليله فجامع معه ﴾ وقال ابن عباس: "إذا أتى الرجل امرأته وهي حائض سبقه الشيطان إليها فحملت فجاءت بالمخنث، فالمؤنثون أولاد الجن"(رواه ابن جرير).ا.هـ. قلت: والحديث المذكور هو من كلام مجاهد، لا من كلام النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأما الجواز الشرعي فقد كره الحسن البصري وقتادة والحكم بن عتيبة وإسحاق بن راهويه نكاح الجن، وفي (الفتاوي السراجية) من كتب الحنفية: "لا تجوز المناكحة بين الإنس والجن وإنسان الماء لاختلاف الجنس"، وكذا أفتى قاضي القضاة شرف الدين ابن البارزي الشافعي بعدم زواج الإنس من الجن، مستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (النحل: 72)، وهو يؤول إلى التعليل باختلاف الجنس كما سبق عن الفتاوي السراجية، وروى حرب الكرماني في مسائله عن أحمد وإسحاق من طريق ابن لهيعة عن يونس بن

---

[1] وبعض العلماء زعم أن الجن لا يدخلون الجنة، وثواب مطيعهم أن يجار من النار وهذا قول لا دليل عليه بل القرآن يرده فإن سورة الرحمن كلها خطاب للإنس والجن، وفيها قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلى آخر السورة وذلك صريح في دخول الجن للجنة، كما يدخلها الإنس.

يزيد عن الزهري قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نكاح الجن، وهذا مرسل، وابن لهيعة فيه كلام.

وروى حرب أيضًا عن زيد العمي – قاضي هراة– أنه قال: اللهم ارزقني جنية أتزوجها، قيل له: يا أبا الحواري وما تصنع بها؟ قال: تصحبني في أسفاري، حيث كنت كانت معي، وروى أبو عثمان سعيد ابن العباس الرازي في كتاب (الإلهام والوسوسة) في باب نكاح الجن منه، قال: حدثنا مقاتل حدثني سعد بن داود الزبيدي، قال: كتب قوم من اليمن إلى مالك بن أنس رضي الله عنه يسألونه عن نكاح الجن، وقالوا: أن هنا رجلًا من الجن يخطب إلينا جارية، يزعم أنه يريد الحلال، فقال: "ما أرى بذلك بأسًا في الدين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل، قيل لها: من زوجك؟ قالت: من الجن!! فيكثر الفساد في الإسلام بذلك"ا.هـ. وهذا قول يدل على الحكمة، وبعد النظر، وهو يتفق مع الأخذ بسد الذريعة الذي اعتبره الإمام مالك في كثير من المسائل.

خلق السماوات والأرض

بعد كتابة مقادير الأشياء بخمسين ألف سنة خلق الله السماوات والأرض، وكان خلق الأرض قبل خلق السماوات، لكن دحوها كان بعد خلق السماوات ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾(النازعات: 27- 33)، والأرضون سبع مثل السماوات ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾(الطلاق: 12)، وهي متراكبة بعضها تحت بعض، كما يفيده ظاهر لفظ: (مثل) في الآية السابقة، وجاء صريحًا في بعض الأحاديث والآثار، ومن حملها على القارات، أبعد وقال ما لا دليل عليه.

خلق آدم عليه السلام

لما أراد الله أن يخلق آدم أمر ملك الموت فقبض قبضة من الأرض من تراب، فجعله طينًا – أي مخلوطًا بماء– ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونًا – أي متغيرًا– خلقه وصوره جسمًا كاملًا بلا روح، ثم تركه حتى صار صلصالًا كالفخار – أي يصل ويصوت إذا ضرب– وكان يمر به إبليس فيفزع منه ويقول: لقد خلقت لأمر عظيم، فلما رآه مجوفًا علم أنه خلق لا يتمالك، ثم نفخ الله فيه من روحه، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس، فألهم أن يقول: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك، فسمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وكانت القبضة التي خلق منها مأخوذة من سلالة الأرض المشتملة على خلاصة ما فيها فجاء أولاده على قدر الأرض، منهم الأبيض والأحمر والأسمر والأسود، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك[1].

---

[1] روى الديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة مرفوعًا: "الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم" وفي مسند أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك ﴾ وراوه أبو داوود والترمذي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

سجود الملائكة لآدم عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ... الآيات ﴾(الحجر: 28-31)، وكان هذا سجود التكريم والتحية جائزًا في جميع الشرائع، حتى حرمته شريعة الإسلام فلا يجوز الآن سجود أحد لأحد لا على وجه التكريم ولا على وجه التحية، كما قال النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ حين أراد أن يسجد له: ﴿ لا يسجد أحد لأحد ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ﴾.

نكتة علمية في سجود الملائكة

نقل المقري في نفح الطيب عن القاضي أبي البركات محمد بن الحاج السلمي – وهو من شيوخ ابن خلدون– أنه استدل لتفضيل الملائكة على البشر بأن الله أسجدهم لآدم، فنظر بعض الحاضرين إلى بعض، وقال: جُنَّ القاضي، قال: أتقولون إن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار؟ قالوا: نعم، قال: أفيختبر تواضع العبد بالخضوع لسيده؟ أم الأمر بالعكس؟ قالوا: إنما يختبر تواضع السيد بالخضوع لعبده، قال: "فكذا الملائكة وآدم لو لم يكونوا أفضل منه ما اختبر حالهم بالسجود له، فأذعنوا لذلك"ا.هـ.، ونظر فيه ابن الحاج في حاشية "المرشد المعين": "بأن الظاهر أن السجود إكرام لا اختبار"ا.هـ. ولا مانع أن يكون اختبارًا أيضًا للملائكة، لأن أوامر الله لا تخلو أن تكون اختبارات للمكلفين بالإضافة إلى ما فيها من المصالح والحكم لهم، وإذا لوحظ أن عنصر الملائكة – وهو النور– أفضل من الطين كان في سجودهم لآدم امتحان أيّ امتحان، ولولا أنهم معصومون لتمسكوا بأفضلية عنصرهم كما تمسك إبليس لعنه الله بكونه خلق من نار، ومن الأدلة في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء: 70)، ولا شك أن بني آدم أفضل من الجن والحيوان بلا نزاع، ولو كانوا أفضل من الملائكة لعبرت الآية بجميع ولكن التعبير بكثير للتنصيص على إخراج الملائكة، وأنهم أعلى من أن يدخلوا في هذه المفاضلة.

خلافة آدم في الأرض

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: 30) تخبر هذه الآية الكريمة أن الله قضى باستخلاف آدم في الأرض لعمارته، والانتفاع بما أودعه فيها من نبات وحيوان ومعادن وغير ذلك: ﴿ هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(البقرة: 29) ولإقامة الحق، والحكم بالعدل بين أهلها إذا اختلفوا؛ والاختلاف ضرورة من ضروريات الحياة في هذه الدنيا، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربي.

كيف عرف الملائكة أن بني آدم يفسدون؟

لما أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فمن أين علموا ذلك؟ للعلماء في الجواب عن هذا السؤال وجوه: **منها**: أنهم ألهموا ذلك إلهامًا؛ قاله الحسن البصري، **ومنها**: أنهم اطَّلعوا عليه في اللوح المحفوظ؛ قاله أبو جعفر الباقر عليه السلام، **ومنها**: أنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبًا؛ نقله الحافظ ابن كثير، **ومنها**: أنهم قالوا ذلك بالقياس على الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فبعث الله عليهم جندًا من الملائكة فأجلوهم إلى جزائر البحور وشعف الجبال وبطون الأودية؛ قاله ابن عباس وابن عمر، **ومنها**: أنهم استنبطوه من لفظ "خليفة" لأن الخليفة من يكون نائبًا في الحكم، وذلك يكون عند التظالم، **ومنها**: أن الله أخبرهم بذلك، وإن لم يشر إليه القرآن على طريقته في الإيجاز وحذف ما يعلم بالقرائن؛ لأن الملائكة لا يعلمون الغيب، ولا يسبقون الله بالقول، فلم يعلموا إلا بإخباره سبحانه وتعالى[1].

---

[1] أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: "لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعرًا شديدًا وقالوا: ربنا لم خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني من خلقي، ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة قالوا يا رب ويأتي علينا دهر نعصيك فيه؟ قال: لا إني أريد أن أخلق في الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفة يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، قالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها الآية ﴾"، وجاء عن ابن عباس أيضًا أن الله أخبر الملائكة بفعل البشر فلذلك قالوا أتجعل فيها الآية.

كيف ساغ للملائكة أن يراجعوا الله وهم معصومون؟

قال أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط): "لما كان ظاهر قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها" الآية، مما لا يناسب أن يجاوبوا به الله – وكان من القواعد الشرعية والعقائد الإسلامية عصمة الملائكة من المعاصي والاعتراض لم يخالف في ذلك إلا طائفة من الحشوية– احتاج أهل العلم إلى إخراج الآية عن ظاهرها، وحملها كل قائل على ما سنح له، وقوي عنده من التأويل الذي هو سائغ في علم اللسان"ا.هـ. ولهم في تخريج الآية أوجه: **أحدها**: أنهم سألوا استفهامًا عن الحكمة في جعل خليفة في الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء، مع علمهم بأن الله يبغض الفساد وسفك الدماء وقالوا: إن كانت الحكمة في خلقهم أن يعبدوك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، لا نفتر عن عبادتك؟، **ثانيها**: أنهم سألوا تعجبا واستعظاما لحصول هذا من بني آدم، مع إكرام الله لهم بالخلافة!!، **ثالثها**: أن الملائكة لما توهموا أن الله تعالى أقامهم في مقام المشورة، بأن لهم وجه المصلحة في بقاء الخلافة فيمن يسبح ويقدس، وأن لا ينقلها إلى من يفسد فيها ويسفك، فعرضوا ذلك على الله، وكان ذلك من جملة النصح في الاستشارة والنصح واجب على المستشار، ولله تعالى الحكم فيما يمضي من ذلك ويختار، قاله بعض أهل الإشارات من الصوفية، **رابعها**: قال صفي الدين أبو عبد الله الحسين ابن الوزير أبي الحسن علي بن أبي المنصور الخزرجي، في كتاب (فك الأزرار): "ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الاعتراض، وهم منزهون عن ذلك، والبيان: أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين، وكان إبليس مندرجًا في جملتهم فورد منه الجواب مجملا، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه وظهور إبليسيته واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين فنوع الاعتراض منه كان عن إبليس، وأنواع الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة فانقسم الجواب إلى قسمين، كانقسام الجنس إلى جنسين،

وناسب كل جواب مَنْ ظهر عنه والله أعلم"ا.هـ. قال أبو حيان: "وهو تأويل حسن، وصار شبيها بقوله: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ لأن الجملة كلها مقولة، والقائل نوعان، فرد كل قول لمن ناسبه"ا.هـ.

تعليم آدم الأسماء كلها

لما صدر من الملائكة ذلك السؤال، وقد قيل أنه كان منهم على سبيل الإدلال، إذ كانوا في حضرة الجمال، أراد الله أن يظهر لهم الحكمة في إيجاد الخليفة، وما يترتب على ذلك من مقاصد سامية شريفة، مع بيان إحاطة علمه تعالى بما لم يعلموه، رغم اطِّلاعهم على اللوح المحفوظ الذي خط القلم فيه ما هو كائن، فعلَّم آدم الأسماء كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة: 31)، وماذا علمه؟ قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وما أشبه ذلك من الأمم وغيرها، وكذا قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم، ثم عرض مسميات الأسماء على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء المسميات إن كنتم صادقين في ظنكم أنكم أعلم ممن أخلقه بعدكم لاطلاعكم على اللوح المحفوظ والجنة والسماوات وما فيهن قبل خلق آدم، فلما عجزوا في هذه الناحية وهم علماء، قال الله: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم آدم بأسماء المسميات بأن قال: هذا شجر وهذا جبل وهذا كذا.. إلخ، قال الله لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وأنتم علمتم ظواهرهما ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ من قولكم أتجعل فيها ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ من ظنكم أني لا أخلق أعلم منكم، ﴿ قَالُوا سُبْحَانك لَا عِلْم لَنَا ﴾ علمًا استقلاليًا بل هو مستمد منك، وهو معنى الاستثناء الآتي ﴿ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ بالوحي أو الاطلاع على اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾: وهنا نكات علمية نشير إليها تتميمًا للفائدة:

إحداها: روى الديلمي وابن عساكر عن عطية بن بسر مرفوعًا في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال: "علمه الله في تلك الأسماء ألف حِرفة من الحِرَف، وقال له:

قل لولدك وذريتك يا آدم: إن لم تصبروا عن الدنيا، فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصًا، ويل لمن طلب الدنيا بالدين، ويل له" وهذا الحديث – وإن كان ضعيفًا– يشتمل على تهديد شديد لأولئك الذين يتخذون الدين مطية لأغراضهم الدنيوية، ومطامعهم الشخصية، وقد توعد الله بني إسرائيل بالويل لاتخاذهم آيات الله تجارةً ومكسبًا، ومما لا شك فيه أن الله علم آدم كثيرًا من الحرف التي يحتاج إليها في حياته هو وأولاده، بل ورد ذلك في كثير من الآثار[1] وكتب التاريخ.

ثانيتها: استنبط من الآية مزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل هو عمدتها وأساسها، والأدلة على هذا كثيرة مبسوطة في محلها، وفي القرآن الكريم آي كثيرة تنوه بفضل العلم وأهله.

ثالثتها: أخذ الأشعري وأتباعه وابن فورك من تعليم الله الأسماء لآدم: أن اللغات توقيفية أي بتوقيف من الله ووحي منه إلى آدم عليه السلام، وهو أحد أقوال في المسألة، والقول الثاني أنها اصطلاحية نشأت بين الناس بحسب احتياجهم إلى التعارف وتفهيم بعضهم مقاصد بعض، فهي من وضع البشر، ودليل هذين مع بقية الأقوال مبسوطة في علم أصول الفقه.

---

[1] روى البزار والطبراني عن أبي موسى يرفعه قال: ﴿ لما أخرج الله آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شيء فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تغير وتلك لا تغير ﴾ رجال إسناده ثقات لكن رواه عبد الرزاق فجعله موقوفًا من قول أبي موسى.

امتناع الشيطان من السجود وطرده من الجنة

امتنع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام، معتزًا بعنصره الناري، وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، وكان امتناعه مسبوقًا بإصراره على عصيان آدم حيث كان يطيف به وهو صلصال كالفخار فيفرغ منه ويقول: لأمر ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت علي لأعصينك، فعارض أمر الله بالسجود واستكبر وكان من العالين، فأبلسه الله من رحمته ولعنه، فسأل الله أن يُنْظِرَه – أي يؤخره– فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى حين تفنى جميع المخلوقات ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾(ص: 75-81)، ويلاحظ أن الخبيث طلب الإنظار إلى يوم البعث لينجو من الموت، إذ لا موت بعد البعث ولكن الله لم يجبه إلى ذلك، بل أخره إلى النفخة الأولى ليذوق الموت الذي حكم الله به على خلقه، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾(القصص: 88).

استشكال في سجود الشيطان والجواب عنه

يستشكل كثير من الناس دخول إبليس في الأمر الموجه للملائكة بالسجود، مع أنه كان من الجن، وهو استشكال وجيه، وجوابه من وجوه: **أحدها**: أنه وإن لم يكن من عنصرهم فقد تشبه بهم، وتوسم بأفعالهم وكان مندمجًا فيهم لعبادة الله، فشمله الخطاب معهم، **ثانيها**: أن الأمر للأعلى – وهم الملائكة– يشمل الأدنى – وهو الشيطان– من باب أولى، ولهذا اتفق الجمهور أن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يشمل أمته معه، إلا إذا قام الدليل على أنه خاص به، **ثالثها**: أن الحكمة في الأمر بالسجود: تحية آدم عليه السلام وتكريمه، وهو معنى يشمل الحاضرين إذ ذاك ومنهم إبليس، **رابعها**: أن قول الله تعالى مخاطبًا لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ صريح في أنه كان مأمورًا بالسجود مع الملائكة؛ ولهذا لم يقل إبليس: لم يتوجه الأمر إليّ، بل عدل إلى قوله: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾، وذلك اعتراف منه بأنه مأمور بالسجود.

نكتة علمية

استنبط علماء الأصول وفقهاء الأمصار من ذم الله لإبليس على ترك السجود الذي أمر به: أن الأمر يقتضي الوجوب، لأنه لا ذم إلا على ترك الواجب، ولو كان الأمر للندب لما ذم الله إبليس على تركه ولكان لإبليس أن يقول: إنك لم توجبه عليّ، لكنه عدل إلى قوله: أنا خير منه الآية، فدلَّ على أن الأمر المطلق للوجوب؛ أي يدل عليه حقيقة، ويكون استعماله في الندب أو غيره من المعاني مجازًا يحتاج إلى قرينة.

نكتة ثانية

قال الحسن البصري: "أول من قاس إبليس"، وكذا قال محمد بن سيرين وزاد: وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، ومعنى هذا أن الشيطان نظر نفسه بالمقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أفضل لشرف عنصره في نظره، وتكبر وامتنع عن السجود لذلك، وهو قياس في مقابلة النص فيكون فاسد الاعتبار.

خلق حواء

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾(النساء: 1) هذه الآية الكريمة تخبر أن الله خلق من آدم زوجه، وكان بدء ذلك أن آدم عليه السلام لما علّم الملائكة أسماء المسميات نام فخلق الله من ضلعه الأيسر امرأة، فلما صحا وجدها بجانبه، فقال لها: ما أنت؟ قالت: امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، قالت له الملائكة ينظرون ما يبلغ علمه: ما اسمها يا آدم، قال: حواء، قالوا: لِمَ سميت حواء؟، قال: لأنها خلقت من حيّ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: « استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » وفي رواية لمسلم « فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها »، وقال ابن عباس: إنما سميت المرأة مرأة لأنها خلقت من المرء، وإنما سميت حواء لأنها أم كل حي، رواه أبو الشيخ ابن حيان وابن عساكر.

نكتة علمية

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: "خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجال، فاحبسوا نساءكم، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض"، يعني في الحراثة والبناء واستخراج ما في باطنها من الكنوز والمعادن.

سكنى آدم وزوجته في الجنة

بعد أن طرد الله الشيطان من الجنة لكفره وتكبره على أمر الله، أمر آدم بسكنى الجنة ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا – أي هنيًا– حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة: 35)، أباح الله لهما سكنى الجنة والأكل من ثمارها ومن جميع ما فيها من غير مشقة ولا تعب يلحقهما في الحصول على ما يريدان من طعام وشراب إلا شجرة واحدة حَرَّمَها عليهما واختلف في تعينها، فقيل الحنطة، وقيل النخلة، وقيل التين، وقيل غير ذلك، وهذا من الخلاف الذي لا طائل تحته، لأنه لا يتعلق بتعينها حكم شرعي، ولا فائدة تاريخية، وإلا لعينها القرآن الكريم، وفي آية أخرى ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾(طه: 117-119) وفي المقابلة بين الجوع والعري، والظمأ والضحاء، مناسبة لطيفة، هي أن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، وبعبارة أخرى الجوع خلو الباطن من الطعام، والعري خلو الظاهر من الثياب، كما أن الظمأ حر الباطن والضحاء حر الظاهر.

نكتة علمية

في قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أي تتعب في الحصول على المعيشة وما يتعلق بها، إشارة واضحة إلى اختصاص الرجل بشؤون الحياة ومتاعبها ومشاقها خارج المنزل، أما المرأة فمكانها البيت، لا شأن لها بالسياسة ولا بالعمل الذي يدعو إلى اختلاطها بالرجال، ويكفيها أن تعنى بإدارة منزلها وتربية أطفالها والعناية بهم حتى يكونوا عدة المستقبل وهذا واضح في قوله: "فتشقى" حيث أسند الشقاء إلى آدم دون حواء، مع ملاحظة توجيه الخطاب إليها معه في سكن الجنة، والأكل من ثمرها، وتحريم شجرة منها، والخروج من الجنة؛ لأن هذه الأشياء يصح اشتراكهما فيها.

الجنة التي سكنها آدم عليه السلام

اختلف العلماء في الجنة التي سكنها آدم وحواء عليهما السلام، فالجمهور على أنها التي في السماء وهي جنة المأوى التي أعدها الله دار ثواب لعباده المؤمنين، وقيل: جنة أخرى غير جنة الخلد لأنه كلف فيها ونام ودخل عليه إبليس فيها، وهذا ينافي أن تكون جنة الخلد، وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وابن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في كتاب المعارف، وحكاه الرازي في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصفهاني، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية ثم اختلف أصحاب هذا القول على رأيين: **أحدهما**: أنها كانت في السماء لقوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ وهو رأي الحسن البصري، **ثانيهما**: أنها كانت في الأرض في جهة عالية منها؛ وهو قول أكثرهم واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي في تفسيره، ثم أفرد له كتابا مستقلًا أطال فيه الاستدلال، وحكاه عن أبي حنيفة وأصحابه، قال القاضي الماوردي في تفسيره: "واختلف في الجنة التي أسكناها – يعني آدم وحواء– على قولين: **أحدهما**: أنها جنة الخلد، **الثاني**: جنة أعدَّها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء، ومن قال بهذا اختلفوا على قولين **أحدهما**: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها؛ وهذا قول الحسن، **والثاني**: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار، وهذا قول ابن بحر، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود والله أعلم بالصواب من ذلك"ا.هـ. وممن حكى الخلاف في المسألة أيضًا أبو محمد بن حزم في (الملل والنحل)، وأبو محمد ابن عطية في تفسيره، وأبو عيسى الرماني في تفسيره، والإمام الرازي في تفسيره، وابن القيم في (حادي الأرواح) وأطال في ذكر أدلة القولين ولم يصرح بترجيح أحد القولين، فكأنه مال إلى التوقف كما مال إليه أبو الحسن الماوردي في عبارته

السابقة، واختاره الإمام الرازي في تفسيره، وجعله قولًا رابعًا حيث قال: والقول الرابع أن الكل ممكن، والأدلة متعارضة، لأنه لم يسلم دليل لأحد الأقوال من احتمال قوي، أو معارضة جيدة تمنع التمسك بظاهره، على أن هذا الخلاف لا يمس العقيدة، ولا ينبني عليه حكم شرعي، وإنما الذي يجب اعتقاده: أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، للأدلة الدالة على ذلك من الكتاب والسنة المتواترة.

وسوسة الشيطان لآدم وحواء

قال الله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾(البقرة: من الآية 36) ومعنى فأزلهما: أزالهما ونحّاهما عن الجنة لأنهما حين أكلا من الشجرة أهبطهما الله من الجنة، وبيان ذلك أن الشيطان عرض أولًا لآدم عليه السلام يزين له الأكل من الشجرة فلم ينجح فيه، فيَمَّمَ نحو حواء عليها السلام فسمعت كلامه وأكلت من الشجرة وزينتها له حتى أكل منها، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها ﴾ أما بنو إسرائيل فكانوا نهوا عن ادخار اللحم السلوى فادخروه جشعًا وحرصًا فعوقبوا بخنزه أي نتنه، وقيل في معناه: لولا أنهم سنُّوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن، وفي الحلية عن وهب بن منبه قال: في بعض الكتب: لولا أني كتبت الفساد على الطعام لخزنه الأغنياء عن الفقراء، وأما حواء فكانت خيانتها أنها زينت لزوجها الأكل من الشجرة حتى أوقعته في المحذور، ثم سرت الخيانة في بناتها بحكم الوراثة، وإن كانت الخيانة تختلف في كل أنثى بحسبها، وفي حديث ضعيف رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عمر مرفوعًا: ﴿ فضلت على آدم بخصلتين كان شيطاني كافرًا فأعانني الله عليه حتى أسلم، وكنّ أزواجي عونًا لي، وكان شيطان آدم كافرًا، وزوجته عونًا على خطيئته ﴾، وروى ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم قال: "ذكر آدم محمدًا رسول الله عليهما الصلاة والسلام فقال: أن أفضل ما فضل به على ابني صاحب البعير أن زوجته كانت عونًا له على دينه، وكانت زوجتي عونًا لي على الخطيئة"، ولا تفهمن من خيانة حواء عليها السلام إتيان الفاحشة فإن هذا الفهم باطل لوجوه: **منها**: أنه لم يكن معها في الجنة مخلوق غير زوجها، **ومنها**: أن زوجها

نفسه لم يقربها إلا بعد الخروج من الجنة كما جاء في بعض الآثار[1] **ومنها**: أن حواء عليها السلام من جملة النساء اللاتي قيل بنبوتهن[2] والمقصود أنها خانت زوجها بحمله على الأكل من الشجرة فلمَّا أكلا منها نزع عنهما لباسهما الذي كانا يلبسانه في الجنة فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليستر عورتهما، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾(الأعراف: من الآية 27) وقال: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ (طه: 118) ففي هاتين الآيتين دليل على أنهما كانا كاسيين في الجنة حتى وقعا في الخطيئة فعوقبا بنزع لباسهما ثم أمر الله آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مع الإخبار بثبوت عداوة بعضهم لبعض، وهي سارية في ذريتهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة: 38)، والصحيح أن الأمرين بالهبوط واحد غير أنه نيط بالأول الإخبار بثبوت عداوة بعضهم لبعض، وبالثاني الاشتراط عليهم أنَّ من اتبع هداه الذي ينزله بعد ذلك[3] سعد وفاز، ومن أعرض عنه شقي وهلك، وهذا من الحكمة في تكرار الأمر بالهبوط، وقد جمع معًا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

---

(1) ونحن لا نرى مانعًا من قربانه لها في الجنة كما قيل بذلك أيضًا بل قد قيل إن قابيل ولد في الجنة.

(2) وهن حواء وأم موسى وسارة أم إسحاق ومريم أم عيسى عليهم السلام قال بنبوتهن ابن حزم وجماعة من العلماء والجمهور على أن النبوة خاصة بالرجال، قال في بدء الأمالي:

وما كانت نبيًا قط أنثى ولا عبد وشخص ذو فعال

ولشقيقنا الحافظ أبي الفيض كتاب (الائتساء بإثبات نبوة النساء)

(3) قال أبو العالية: الهدى الأنبياء والرسل والبيان، وفي الحلية بإسناد ضعيف عن ابن عباس مرفوعًا: "قال إبليس لربه تعالى: قد أهبط آدم وقد علمت أن سيكون كتاب ورسل فما كتابهم ورسلهم؟ قال: رسلهم الملائكة والنَّبيّون وكتبهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، ورسلك الكهنة، وقراءتك الشعر، وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه، وشرابك كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق".

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾(طه: 123) وهو يؤيد ما أبديناه، أما قوله (اهبطا) بالتثنية، فالخطاب فيه موجه لآدم وإبليس، وحواء تابعة لآدم عليهما السلام، ومنطوية تحت لوائه.

كيف توصل الشيطان إلى الوسوسة؟

سؤال تردد على الألسنة والشفاه، وإشكال لم يجد المستشكل له حلًا يرضاه، وعرض له المفسرون وغيرهم بأجوبة لا تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا فقيل إنه كلمهما وهو في الأرض وهما في السماء فسمعا كلامه ووسوسته، وقيل كلمهما من باب الجنة، وقيل دخل في فم الحية، ويحكون في ذلك حكاية طويلة مأخوذة عن الإسرائيليات، وقيل أوقع في قلبهما الوسوسة بطريق الإلهام مع بعده عنهما وقيل غير ذلك، والصواب في الجواب أنه دخل الجنة عاصيًا ووسوس لهما مشافهة ذلك أن الأمر نوعان: **الأول**: أمر تكليفي يوجب الفعل على المكلف مع بقاء اختياره في أن يفعل وأن لا يفعل مثلًا قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يوجب الصلاة على عموم المكلفين مع بقاء اختيارهم في أن يصلوا فيفوزوا برضا الله وأن لا يصلوا فيبوؤوا بغضب الله ولا إجبار فيه ولهذا تجد كثيرًا من المكلفين لا يصلون وهكذا سائر الأوامر التكليفية في القرآن والسنة، **الثاني**: أمر تكويني أو قدري وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾(يس: 82) وهذا لابد من وقوعه حتمًا من غير أن يكون للشخص في وقوعه اختيار أو إرادة نحو قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ فكانوا قردة، لا يجوز أن يقع غير ذلك، ولا شك أن قوله تعالى للشيطان: ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾، ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ من النوع الأول وهو نظير أمره بالسجود لآدم عليه السلام فكما أنه عصى بترك السجود كذلك عصى بدخول الجنة بعد أمره بالخروج منها وفي قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ إشارة واضحة إلى أن في إمكانه دخول الجنة وتمكنه من إخراجهما بوسوسته ولو لم يكن قادرًا على ذلك لما حذرهما الله منه وقد جعل ابن القيم وابن كثير الأمر بخروج الشيطان من النوع الثاني وهو سهو منهما عما قررناه ومما

يؤيد أنه من النوع الأول اقترانه بالتعليل ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾، ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ والتعليل لا يقترن إلا بالأمر التكليفي لبيان سبب توجيهه إلى المكلف أو لترغيبه في امتثاله ولا ريب في أن سبب أمر الشيطان بالخروج من الجنة كونه رجيمًا وكونه تكبر في مكان لا ينبغي فيه التكبر كما أفادته الآيتان السابقتان، أما الأمر التكويني فلا يمكن اقترانه بالتعليل لأنه لا دخل فيه لفعل الشخص ولا لاختياره كما سبق.

كيف وقعت المخالفة من آدم عليه السلام

سؤال طالما خاض الناس في الجواب عنه، ملتمسين المخرج مما فيه من إشكال، وكل قال حسب اجتهاده وما ظهر له صوابه، فقيل أكل من الشجرة وهو سكران، وهذا قول باطل، حكيناه لننبه على فساده، وقيل أكل من جنس الشجرة لا من عينها، كأن إبليس غرَّه بالأخذ بالظاهر، وهذا ضعيف لمخالفته لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فهذا تعيين لشجرة بعينها، وقيل حمل النهي على التنزيه دون التحريم، وهو ضعيف أيضًا لأن قوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قرينة على التحريم، وقيل أكل متأولًا لرغبة الخلد، لأن الله حين أباح له الجنة يأكل منها رغدًا حيث شاء، وأخبره أنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى لم يشر إلى خلوده فيه، فوسوس إليه الشيطان من هذه الجهة وهو ضعيف أيضًا إذ كيف يقال له: لا تأكل منها فتكون من الظالمين، ثم هو يرجو أن يكون من الخالدين، وقيل هو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا كلام خطابي، يقصد به الاسترواح، ثم هو يشتمل على تناقض، فإن الحسنة لا يمكن أن تكون سيئة، لا بالنسبة للمقربين ولا غيرهم، وقيل أكل قبل النُّبوة وهذا ضعيف لأن الله نبأه حين علمه الأسماء، وقيل أكل ناسيًا؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(طه: 115) أي عهد إليه ألا يقرب الشجرة كما قال ابن عباس وغيره، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: خلق الله آدم من أديم الأرض يوم الجمعة بعد العصر فسماه آدم، ثم عهد عليه فنسي فسماه الإنسان، قلت: ثبت أن الله خلق آدم يوم الجمعة ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة ﴾، وفي سنن الترمذي ومستدرك

الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال أي رب مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينه، فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أَوَلَمْ يبقى من عمري أربعون سنة؟ قال: أَوَلَمْ تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطأ آدم فخطأت ذريته ﴾ قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وللحديث طرق جاء في بعضها قال: ﴿ فأخرج الله الكتاب أقام عليه البينة ﴾ – يعني بهبته لداود– فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة"، والمقصود: أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسيًا غير متعمد مخالفة ما نهاه الله عنه، وهذا هو الجواب الصحيح المؤيد بالأدلة، فإن قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم وسمه الله بالعصيان في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾؟ فالجواب: أن المحذور هو أن يقع الشخص في الذنب عامدًا إليه مقتحمًا له مع العلم به وقد عصم الله آدم من هذا ونزهه عنه، قال القاضي أبو بكر ابن العربي المعافري: "إن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ وقضائه السابق أسلم آدم إلى المخالفة فوقع فيها متعمدًا ناسيًا فقيل في تعمده ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ وقيل في بيان عذره ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ ونظيره أن يحلف الرجل لا يدخل دارًا أبدًا فيدخلها متعمدًا ناسيًا ليمينه أو مخطئًا في تأويله فهو عامد ناسٍ ومتعلق العمد غير متعلق النسيان، وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى تحقيرًا وتعذيبًا ويعود عليه

بفضله فيقول نسي تنزيهًا ولا يجوز لأحد منا أن يخبر بذلك عن آدم إلا ذكرناه في أثناء قول الله عنه أو قول نبيه، وأما أن نبتدئ في ذلك من قبل أنفسنا فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين إلينا المماثلين لنا فكيف بأبينا الأقدم الأعظم النَّبيّ المقدم الذي عذره الله وتاب عليه وغفر له"ا.هـ. وهو حسن جيد يضاف إليه أن المؤاخذة بالنسيان إنَّما رفعت عن هذه الأمة فقد ورد عن أبي ذر وثوبان وابن عباس وغيرهم من طرق عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ أن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ﴾ وروى ابن أبي حاتم من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر عن أم الدرداء عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ إن الله تجاوز لي لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه ﴾ قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن فقام: أجل أما تقرأ قرآنًا؟ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة في نزول ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال الله: "نعم"، وفيه أيضًا عن ابن عباس: "قال الله قد فعلت" وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلم أو يعلم به ﴾ قال الأبي في (شرح مسلم): في العتيبة: قال رجل من أصحاب عيسى لعيسى عليه السلام: إنك تمشي على الماء فقال له عيسى: وأنت إن كنت لم تخط تمشي على الماء فقال: لم أخط خطيئةً قط فقال له عيسى عليه السلام: فامش على الماء فمشى ذاهبًا فلما رجع غرق ببعض الطريق فدعا عيسى عليه السلام فأخرجه فقال له عيسى ألم تزعم أنك لم تخط؟ فقال: لم أخط قط ولكن وقع في نفسي أني مثلك، قال ابن رشد في البيان: "هذا الذي عوقب به صاحب عيسى عليه السلام تجاوز الله سبحانه لهذه الأمة عنه"ا.هـ. قال الأبي: "وكذا نص غيره على أنه خاص بهذه الأمة"ا.هـ.

لطيفتان

الأولى: روى البيهقي في الشعب عن أبي عبد الله المغربي قال: تفكر إبراهيم عليه السلام في شأن آدم عليه السلام فقال: يا رب خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس حتى يقولوا: وعصى آدم ربه فغوى، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم! أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة؟ قلت: في هذا الأثر عبرة بالغة تفيد أن الله يكره من أحبابه أن يخالفوه، ولذا أعلن مخالفة آدم عليه السلام، ليحرصوا على تجنب المخالفة لله إن أرادوا أن يكونوا أحبابه[1].

الثاني: روى الزبير بن بكار في الموفقيات عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سألت عمر عن قول الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ قال: كان رجال من المهاجرين في أنسابهم شيء فقالوا – يومًا–: والله لوددنا أن الله أنزل قرآنًا في نسبنا فأنزل الله ما قرأت، ثم قال: إن صاحبكم – يعني عليًا عليه السلام– إنْ وَلِيَ زَهد، ولكني أخشى عجب نفسه[2] أن يذهب به، قلت: يا أمير المؤمنين إنَّ صاحبنا من قد علمت، والله ما نقول إنه غيَّر ولا بدَّل ولا أسخط رسول

---

(1) ومن الإشارات في هذا المعنى ما ذكره ابن القيم في كتاب (الفوائد) حيث قال: "تالله ما نفعه عند معصيته عز "اسجدوا" ولا شرف "وعلَّم آدم" ولا خصيصة "لما خلقت بيدي" ولا فخر "ونفخت فيه من روحه" وإنما انتفع بذل "ربنا ظلمنا أنفسنا"، لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر، وقع سهم العدو – يعني إبليس– منه في غير مقتل. فجرحه، فوضع عليه جبار الانكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة"ا.هـ. (قلبة بفتحات: ألم).

(2) في هذه التعابير تجاوز وتسامح فلم يكن عند علي عليه السلام إعجاب بنفسه ولا زهو بحاله، كما شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد قال الزبير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يدعو ابن أبي طالب زهوه، فرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم" يشير إلى وقعة الجمل، ولكنها الثقة والاعتداد، ثقة بشجاعته الفائقة، واعتداد بعلمه الذي لم يبلغ شأوه فيه أحد، قال ابن عباس: سلم الصحابة لعلي تسعة أعشار العلم، وشاركهم في العشر العاشر، فهذه الثقة والاعتداد نسميها مثل عمر والزبير رضي الله عنهما إعجابا وزهوا، على سبيل التجوز، ولكن الحاسدين والحاقدين يتخذون مثل هذه التسمية منقصة له عليه السلام، وقد برأه الله من ذلك وطهره كيف وقد نزل فيه وفي ولديه الحسن والحسين وزوجه فاطمة عليهم السلام، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

الله صلى الله عليه وآله وسلم أيام صحبته، فقال: ولا في بنت أبي جهل وهو يريد أن يخطبها على فاطمة؟ قلت: قال الله في معصية آدم عليه السلام ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾، وصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الخواطر التي لم يقدر أحد على دفعها عن نفسه، ربما كانت من الفقيه في ديننا العالم بأمر الله، فإذا نبه إليها رجع وأناب، فقال: يا ابن عباس! من ظن الأثر تقرير عمر لزهد علي، واعترافه بسعة علوم آل البيت النبوي بحيث يعجز من حاول بلوغ مداها، وفيه ما يتعلق مسألتنا أن ابن عباس يرى في قوله تعالى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أنَّ معناه: لم نجد له عزمًا على المعصية، وفي هذا تأكيد بالغ لمعنى النسيان الذي رجحناه وأيدناه.

توبة آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: 37) فما هي تلك الكلمات التي تلقاها؟ في تعيينها أحاديث وآثار، منها ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والحسن ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا هي قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(الأعراف: 23) ومنها ما رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: أي رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى قال: أي رب ألم تسبق إلي رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم، **ومنها**: ما رواه الطبراني في (الأوسط) والبيهقي في (الدعوات) وابن عساكر بسند لا بأس به عن بريدة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت أسبوعًا وصلى حذاء البيت ركعتين، ثم قال: اللهم أنت تعلم سري وعلانيتي، فأقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما عندي، فاغفر لي ذنبي، أسألك إيمانًا يباشر قلبي، ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضني بقضائك، فأوحى الله يا آدم: إنك دعوتني بدعاءٍ فاستجبت لك فيه، ولم يدعوني به أحد من ذريتك إلا استجبت له، وغفرت له ذنبه، وفرجت همه وغمه، وأتجرت له من وراء كل تاجر، وأَتَتْه الدنيا راغمًا وإن كان لا يريدها ﴾.

وورد نحوه عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها مرفوعًا وموقوفًا.

ومنها: ما رواه أبو نُعَيم في (الحلية) عن عبيد بن عمير قال: قال آدم: يا رب أرأيت ما أتيت، أَشَيْءٌ كتبته عليّ قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته على نفسي؟ قال:

بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: يا رب فكما كتبته عليّ فاغفره لي، فذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، **ومنها:** ما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﷺ لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي فقال الله: فكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك ﷺ قال البيهقي في (دلائل النبوة): "تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف"ا.هـ.، ووافقه الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية)، وعندي أنه حديث حسن لتأيده بشاهدين **أحدهما:** ما رواه أبو الحسين بن بشران من طريقه ابن الجوزي في كتاب (الوفا بفضائل المصطفى) عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبيًا قال: ﷺ لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وخلق العرش كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد فلمَّا أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك فلما غرَّهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه ﷺ إسناده قوي كما قال الحافظ ابن حجر، **ثانيهما:** ما رواه ابن المنذر في تفسيره عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "لمَّا أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل فقال: يا آدم هل أدلُّك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى قال:

قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك فمجده وامدح فليس شيء أحب إلى الله من المدح قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ثم تبوء بخطيئتك فتقول: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إني ظلمت نفسي وعملت السوء فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي، قال: ففعل آدم فقال الله: يا آدم من علمك هذا؟ قال: يا رب إنك لما نفخت فيّ الروح فقمت بشرًا سويًا أسمع وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوبًا: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب ولا نبي مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك قال: صدقت وقد تبت عليك وغفرت لك خطيئتك قال فحمد آدم ربه وشكره وانصرف بأعظم سرور لم ينصرف به عبد من عند ربه"، وكان لباسه النور، قال الله: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ ثياب النور قال: فجاءته الملائكة أفواجًا تهنئه يقولون: لتهنك توبة الله يا أبا محمد، وقد يقول قائل: كيف نجمع بين هذه الأخبار؟ وأيها نرجح أن آدم قاله؟ فيقال له: إنما يلجأ إلى الترجيح إذا وجد تدافع بين مضمون الأخبار، وتعذر الجمع بينها، وأنت إذا تأملت الآثار السابقة، وجدتها متوافقة متناسقة لأنها تشتمل على إقرار بوحدانية الله، وثناء عليه بنعمه، واعتراف بالذنب ودعاء وتضرع وتوسل إليه في قبول التوبة، فلا مانع أن يكون آدم عليه السلام تقرب إلى الله بتلك المعاني كلها، كما في أثر أبو جعفر الباقر المشتمل على معظمها، وكما جاء عن قتادة في قوله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قال: ذكر لنا أنه قال: يا رب أرأيت إن تبت وأصلحت؟ قال: فإني إذًا أرجعك إلى الجنة؟ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين،

فاستغفر آدم ربه، وتاب إليه، فتاب عليه، وأما عدو الله إبليس فوالله ما تنصَّل من ذنبه، ولا سأل التوبة حين وقع بما وقع به، ولكن سأل النظرة إلى يوم الدين، فأعطى الله كل واحد منهما ما سأل، رواه البيهقي في (الشعب)، ففي هذا الأثر إشارة إلى ما قلناه آنفا، غاية ما في الأمر أن الرواة اقتصر كل واحد منهم على بعض الكلمات. ولهذا رغب أهل الحديث بجمع طرق الحديث واستيفائها ليمكن حصر ألفاظه، وتفهم معناه، واقتصار القرآن على قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لا ينفي غيره من الكلمات، قد يتوهم من لا تحقيق لديه، وإنما اقتصر على تلك الكلمة – فيما نرى– ليوازن بين آدم حيث اعترف بذنبه، طالبا غفران ربه، وبين إبليس الذي استمر على عصيانه طالبا النظرة ليغوي الناس، ويجرهم إلى عذاب الله وهوانه، يضاف إلى ذلك أن الاعتراف بالذنب هو المقصود من التوبة، وما عداه من الحمد والثناء، والتوسل و الدعاء فكله استشفاع يقدمه العبد بين يدي رغبته، ليحظى بقبول توبته، وفي الأمثال السائرة: من أقر بذنبه غفر الله له، ومن مقتضيات الإيجاز في أسلوب القرآن الكريم: الاكتفاء من الخبر بفائدته ومن القصة بخلاصتها.

نبوة آدم عليه السلام

ظهر في هذا الوقت العصيب بعض الدخلاء على العلم والدين بمظهر مصلح المجدد وكان من إصلاحه وتجديده أن أنكر نبوة آدم عليه السلام فصدق عليه المثل العربي: أول الدن دردي، وحكمت محكمة دمنهور الشرعية بالتفريق بينه وبين زوجه لردته بهذا الإنكار واستأنف في محكمة الإسكندرية واعترف بأنه: لم ير القرآن ذكر آدم بالنبوة وأنه يعتقدها وهذا اعتراف بجهله الفاضح وتقليده الأعمى وكيف ساغ له أن يعتقد ما لا دليل عليه في نظره؟ أليس هذا هو التقليد الأعمى في أقبح صورة؟! ثم جاء آخر من بعده كتب في قصص الأنبياء فاعترف بنبوة آدم عليه السلام ولكنه توقف في رسالته وفوض علمها إلى الله تعالى فوقع في غفلة كبيرة عن دلالة القرآن وأبان عن جهل بنصوص السنة وإجماع الأئمة بل مما أكد له عدم رسالة آدم حسب فهمه أنه رأى في حديث أبي هريرة في الشفاعة الوارد في صحيح مسلم: أن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون له: أنت أول رسل الله إلى الأرض قال: فلو كان آدم رسولًا لما ساغ هذا القول قال أيضا: العلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان وهو تأويل متكلف هذا كلامه وهو باطل حسبما يتبين مما يأتي بحول الله تعالى.

دلائل القرآن على نبوته:

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا... الآية ﴾، أخبر الله في هذه الآية الكريمة أنه علمه أسماء المسميات بدون واسطة، وأمره أن ينبئ بها الملائكة عليهم السلام، وهذا تسجيل لنبوته وقال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ... الآية﴾، ففي هذه الآية أباح الله له وحرم عليه بدون واسطة، وهذا تسجيل ثان لنبوته، والخطاب متوجه لآدم، وحواء تابعة له، وبواسطته توجه عليها الخطاب، فهو رسول إليها من هذه الحيثية، ودليل آخر من القرآن على رسالته، وهو:

قصة هابيل وقابيل

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ ﴾(المائدة: 27-31)، ذكر سدى عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يُزَوِّج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل، أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يُقَرِّبا قرباناً وذهب آدم إلى مكة ليحج، واستحفظ السماوات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك فلما ذهبا قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمين وكان صاحب الغنم، وقرب قابيل حزمة من زرع رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى تنكح أختي فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فأتاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها على رأسه، وقيل خنقه خنقًا شديدًا وعضه عضًا كما تفعل السباع ثم ندم فضمه إليه حتى أروح – أي تغيرت رائحته– وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، وكره أن يأتي به آدم فيحزنه، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له بمنقاره وجعل يحثي عليه حتى واراه فقال قابيل: أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي، وكان أول قتل وقع في الأرض

ولهذا لم يهتد لدفن أخيه حتى تعلم من الغراب، وفي الصحيحين والسنن غير أبي داود عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ولا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل ﴾ وقول الحسن في قوله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ كانا من بني اسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القربان في بني اسرائيل، وكان أول من مات، باطلًا وغلط قطعًا إذ كيف يكون من بني اسرائيل ويكون أول من مات؟!! وبين آدم وبني إسرائيل مئات القرون من الزمان مات وقتل فيها ألوف الناس، فهل بقي أولئك الألوف من غير دفن، حتى تعلمه بنو إسرائيل من الغراب؟!! والمقصود أن القصة وقعت لابني آدم لصلبه بنص القرآن والحديث الصحيح، إذا عرف هذا فالآية تفيد أنهما قربا إلى الله قربانًا وأن أحد الأخوين أخبر أخاه بأن الله إنما يتقبل من المتقين وأنه إن قتله يبوء بإثمهما وأنه يكون من أصحاب النار، وأن النار جزاء الظالمين وأن خوف الله رب العالمين منعه أن يبسط إليه يده بالقتل، فهذه عدة أحكام دينية شرعية لا تدرك ولا تعرف إلا من طريق رسول ولا رسول في ذلك الوقت إلا آدم عليه السلام فكان هو الرسول إلى أولاده وأهل بيته، وهذه الدلالة من الوضوح بالمكان الذي لا يخفى.

دلالتان من القرآن أيضًا

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾(البقرة: من الآية 253) في هذه الآية دلالة على رسالة آدم من وجهين، **الأول**: من قوله ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ فإنَّ الإشارة بتلك إلى الرسل السابق ذكره في سورة البقرة وهم آدم وموسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود ثم أجمل عددهم في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، **الثاني**: في قوله: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ وهم آدم وموسى والنَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أما آدم فقد سبق أن الله علمه الأسماء وأمره ونهاه وكل ذلك بغير واسطة كما سيأتي في الحديث، وأما موسى فلقول الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وأما النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فكان تكليم الله له ليلة المعراج.

دلالة أخرى من القرآن

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 33) آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق، وآل عمران: موسى وهارون ومن فسرهما بغير هذا فقد ذهل، لأن الله اقتصر على هؤلاء لحكمة ظاهرة هي أن آدم أبو البشر، ونوحًا أبوهم الثاني، وإبراهيم جعل الله في ذريته النبوة والكتاب بواسطة ولديه إسماعيل وإسحاق، وموسى أتى بالتوراة فيها تفصيل كل شيء وأمته أكثر الأمم من عهد آدم إلى نبينا عليه الصلاة السلام، وأنبياء بني إسرائيل بعده كلهم تابعون له، حتى عيسى عليه السلام، ولهذا لما سمع نفر من الجن القرآن من النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(الأحقاف: 29-30) ولم يشيروا إلى عيسى عليه السلام لأن الإنجيل غالبه مواعظ وما فيه من الأحكام لا يخرج عن التوراة إلا في النادر كما قال تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾، إذا علم هذا فالاصطفاء في الآية اصطفاء رسالة كما في قوله تعالى: ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وقوله تعالى في إبراهيم: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ وقوله تعالى في جملة من الرسل: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ وقوله تعالى لموسى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الملَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ فإن هذا ليس اصطفاء رسالة بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾، بل قوله: ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ يؤكد ذلك أيضًا إذ لو كان اصطفاء رسالة لقال: واصطفاك على

العالمين، لأن الرسول مُفَضَّل على العالمين رجالًا ونساءً كما هو معلوم بالضرورة، وأيضًا فإن الله قال عنها: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ وهذا قاطع في أنَّ اصطفاءها ليس اصطفاء رسالة ولا نبوة.

دلالة السنة النبوية

- روى الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر بيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر... الحديث ﴾ قال الترمذي: حديث حسن.
- روى أحمد والنسائي عن أبي ذر رضى الله عنه قال: أتيت النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد فجلست فقال: ﴿ يا أبا ذر هل صليت؟ ﴾ قلت: لا، قال: ﴿ قم فصلِ ﴾ فقمت فصليت ثم جلست، فقال: ﴿ يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ﴾ قلت يا رسول الله: أَوَ للإنس شياطين؟ قال: ﴿ نعم ﴾ قلت: يا رسول الله الصلاة؟ قال: ﴿ خير موضوع، من شاء أقل ومن شاء أكثر ﴾ قلت: يا رسول الله فالصوم؟ قال: ﴿ فرض مجزئ وعند الله مزيد ﴾ قلت: يا رسول الله فالصدقة؟ قال: ﴿ أضعاف مضاعفة ﴾ قلت: يا رسول الله فأيها أفضل؟ قال: ﴿ جهد من مُقِلّ أو سر إلى فقير ﴾ قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: ﴿ آدم ﴾ قلت: يا رسول الله ونبيًا كان؟ قال: ﴿ نعم نبيٌ مكلم ﴾ قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ﴿ ثلاثمائة وبضعة عشر جمًا غفيرًا، وقال: مرة وخمسة عشر ﴾، قلت: يا رسول الله أيّما أنزل عليك أعظم قال: ﴿ آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ صححه ابن حبان والحاكم وسلمه الذهبي، وهذا مما رواه المسعودي قبل اختلاطه.
- روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: ﴿ مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ﴾ قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟

﴿ ثلاثمائة وثلاثة عشر جمٍ غفير ﴾ قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: ﴿ آدم ﴾ قلت: يا رسول الله نبيٌّ مرسل؟ قال: ﴿ نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا ﴾ وافق على تصحيحه الحافظ ابن كثير والحافظ ابن حجر، ورواه عبد بن حميد في تفسيره والآجري في (الأربعين).

- روى الطبراني وأبو الشيخ في (العظمة) وابن مردويه عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أرأيت آدم؟ أنبيًا كان؟ قال: ﴿ نعم كان نبيًا رسولا كلمه الله قبلا، قال له يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ والحديث يشير إلى أنه كان رسولًا إلى زوجته.
- روى أحمد والبخاري في (التاريخ) والبزار والبيهقي في (الشعب) عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: ﴿ آدم ﴾ قلت: يا رسول الله: ونبيًا كان؟ قال: ﴿ نعم نبيٌ مكلم ﴾ قلت: كم كان المرسلون؟ قال: ﴿ ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا ﴾.
- روى ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في (الأسماء والصفات) عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رجلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أنبيًا كان آدم؟ قال: ﴿ نعم نبيٌ معلم مكلم ﴾ قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: ﴿ عشرة قرون ﴾ قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: ﴿ مائة ألف وأربعة عشر[1] جمًا غفيرًا ﴾ صححه ابن حبان والحاكم على شرط مسلم وسلمه الذهبي.

(1) لم نقف على أي مرجع ذكر هذا الحديث بهذا اللفظ، فلعله كان لسيدي عبد الله رواية بهذا اللفظ ونقلها أو كان هذا من باب السهو أو الخطأ المطبعي.

- روى أحمد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: يا نبي الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: ﴿ آدم ﴾ قال: أَوَ نبيًا كان آدم؟ قال: ﴿ نعم نبيٌ مكلم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم قال له يا آدم، قبلًا ﴾ قال: يا رسول الله كم عدة الأنبياء؟ قال: ﴿ مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا ﴾ ولهذه الأحاديث طرق ذكرها الحافظ السيوطي في (الأمالي التفسيرية) بتوسع، وقد زعم بعض الناس أن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(غافر: 78) يعارض بعض هذه الأحاديث التي عينت عدد الأنبياء والرسل، وهو زعم باطل ومعاذ الله أن يكون بين القرآن والحديث تناقض وتدافع، والأمر هنا واضح لولا الغفلة أو الغرض، فالحديث عرض لعددهم، والقرآن إنما عرض لقصصهم ولم يشر لعددهم، فأين التناقض المزعوم؟!!

الإجماع

قال ابن حزم في كتاب (مراتب الإجماع) تحت ترجمة: باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع، ما نصه: "واتفقوا أن كل نبي ذكر في القرآن حق؛ كآدم وإدريس ونوح وهود وصالح وشعيب ويونس وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ولوط وزكريا ويحيى وعيسى وأيوب وذي الكفل"ا.هـ. هكذا نقل الإجماع غير واحد هذا من العلماء.

استشكال والجواب عنه

ثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل أن الناس يطلبون من يشفع لهم فيذهبون إلى آدم فيعتذر ويدلهم على نوح فيذهبون إليه ويقولون أنت أول رسول إلى أهل الأرض فأخذ بعض الناس من هذا أن آدم ليس برسول، وإلا لم يصحّ ذلك القول منهم، ولو تأملوا لفظ الحديث جيدًا لوجدوا فيه جواب ما استغلق عليهم، فإن آدم عليه السلام كان رسول إلى زوجه في الجنة وبعد خروجه منها استمرت رسالته لأولاده، فلم تتعد رسالته محيط بيته، أما نوح عليه السلام فهو أول رسول إلى أهل الأرض كما في الحديث، لأن رسالته تجاوزت أهل بيته وأقاربه إلى الأباعد والأجانب فكان مرسلًا إلى أمة من الناس سماهم الله قومه كما سمى قوم هود وصالح، وكثر فيهم الكفر والعناد واللجاج حتى دعا عليهم بقوله: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾(نوح: 26-27).

آدم هو أبو البشر

يزعم بعض الناس أن آدم عليه السلام ليس هو أول النوع الإنساني بل كان قبله أوادم كثيرة، ويستأنسون لهذا الزعم بأمور ثلاثة، **الأول**: حديث يروونه عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يفيد هذا المعنى، وهو مذكور في السيرة الحلبية وغيرها، **الثاني**: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً... الآية ﴾، فآدم إنما خلف غيرها من الأمم التي كانت تعمر الأرض قبله وبادت، **الثالث**: أن علماء الجيولوجيا يرون وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجدين الآن، يرجع تاريخ وجودها إلى مئات الآلاف من السنين، وأن الجنس الآدمي الموجود الآن لا يمت إلى ذلك الجنس الآدمي السابق بصلة ولا قرابة، والذي يقتضيه التحقيق العلمي أن آدم عليه السلام هو أبو البشر وأول النوع الإنساني على وجه الأرض، هذا ما يفيده القرآن والسنة الصحيحة بل المتواترة، فالقرآن ذكر غير مرة أن الله خلق آدم من طين لدلالة على كمال قدرته حيث خلق من طين بشرًا سويًا يسمع ويبصر ويعقل ولو كان هناك أوادم آخرون لكان ذكرهم أولى في إفادة هذا المعنى وأوكد، وانظر إلى عيسى عليه السلام حيث وُجِد من غير أب كيف شبهه الله بآدم فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(آل عمران: 59)، فهذا صريح في أن آدم أول البشر على الإطلاق، يضاف إليه مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (النساء: 1)، وقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾، وفي حديث الشفاعة المخرج في الصحيحين وغيرهما عن أنس عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أن الناس يأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده... الحديث ﴾، وفي الصحيحين أيضًا من طرق تزيد على عشرة عن أبي هريرة

وغيره عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في محاجة موسى وآدم: ﴿ أن موسى عليه السلام قال لآدم: أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ﴾ وفي رواية ﴿ أنت أبو البشر... الحديث ﴾ وسيأتي بتمامه إن شاء الله، وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة أن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ أول من يدعى يوم القيامة آدم فتراءى ذريته، فيقال هذا أبوكم فيقول لبيك وسعديك فيقول أخرج بعث النار من ذريتك، فيقول يا رب كم أخرج؟ فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ﴾، فقالوا يا رسول الله إذا أخذ منا من كل مائة تسع وتسعين فماذا يبقى منا؟ قال: ﴿ إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ﴾، وعند ابن أبي الدنيا عن الحسن البصري عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ يقول الله لآدم يا آدم أنت اليوم عدل بيني وبين ذريتك قم فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم ﴾، وروى الطبراني في (المعجم الصغير) عن الحسن البصري قال: خطبنا أبو هريرة على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿ ليعتذرن الله تعالى يوم القيامة إلى آدم ثلاث معاذير، يقول الله تعالى: يا آدم لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأعذب عليه، لرحمت اليوم ولدك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حق القول مني لأن كَذَبْتُ كُذِّبَت رسلي وعُصِيَ أمري لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين، ويقول الله عز وجل يا آدم اعلم أني لا أدخل من ذريتك النار أحدًا ولا أعذب بالنار إلا من قد علمت بعلمي أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه، ولم يرجع ولم يعتب، ويقول الله يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك، قم عند الميزان فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة، حتى تعلم أني لا أدخل منهم النار إلا ظالمًا ﴾ فهذه النصوص صريحة لا تحتمل التأويل ومثلها نصوص كثيرة لا تكاد

تنحصر، فدعوى وجود أوادم قبل آدم دعوى باطلة، تخالف ما هو معلوم بالضرورة للمسلمين، بل للملايين قاطبة، وما استأنس به أولئك الزاعمون لا ينهض، أما الحديث الذي أورده فهو باطل موضوع لا أصل له بجميع ألفاظه وأما قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فالمراد به خليفة عن الله في إقامة الأحكام، وتبليغ الشرائع والقيام بحفظ مصالح الخلق لما يكفل ذلك الحفظ، ويصونه، أو خليفة من الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم عليه السلام وما بقايا العظام الذي تكلم عنها الجيولوجيين أنها وجدت لجنس يرجع تاريخه إلى مئات الألوف من السنين إلا عظام أولئك الجن وبقاياهم يؤيد هذا ويؤكده قولهم أيضًا: إن بقايا عظام ذلك الجنس لا تمت إلى الجنس الآدمي الموجود الآن بصلة ولا قرابة، وهذا صحيح، لاختلاف عنصري الجنسين فالجن من عنصر النار، والإنسان من عنصر التراب فالجيولوجيون أخطؤوا في تسمية ذلك الجنس بالآدمي والصواب أنه الجن كما بينا، والله أعلم.

هل أصل الإنسان قرد؟

ظهرت نظرية في البلاد الأوروبية تقول: إن الإنسان أصله قرد ثم ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هذا الإنسان وهي نظرية النشوء والارتقاء التي ابتدعها داروين، وتلقفها المفتونون بكل جديد ولو كان سخيفًا باطلًا، كهذه النظرية التي تردها دلائل النقل والعقل، **منها**: أن نصوص القرآن الكريم صريحة في أن آدم أبو البشر، وأنه مخلوق من طين، **ومنها**: ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعًا... الحديث ﴾، والضمير في صورته يعود على آدم، وبعض الرواة فهم أنه يعود على الله فوهم، وزاد بعضهم في الوهم فروى الحديث المعنى فقال خلق الله آدم على صورة الرحمن وهو وهم مبني على وهم، والمقصود أن الحديث يشير إلى أن آدم خلق على صورته الأصلية لم يترق من قرد إلى أن صار إنسانًا، كما لم يتدرج في أطوار الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، **ومنها**: أن الله جعل عوالم المكلفين ثلاثة الملائكة والإنس والجن، فالملائكة من نور، والجن من نار، والإنس من طين كما صح في الحديث بل صرح القرآن بذلك في الجن والإنس فحدد لكل عالم عنصرًا خاصًا به، منه تكون حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، ولو كان الإنسان ترقى من قرد أو غيره، لبينه الله حينما عرض لبيان عنصري الثقلين، أو لبينه الرسول المبلغ عنه حينما عرض لبيانهما مع بيان عنصر الملائكة، ولا يجوز السكوت عنه أبدًا بحال، لأنه إخبار بخلاف الواقع، وإيقاع للناس في الغموض والإشكال، وذلك في حق الله ورسوله محال، **ومنها**: أنه لا يجوز في قضايا العقول أن يتطور حيوان ما تطورًا تلقائيًا يخرج به عن حقيقته إلى حقيقة أخرى تباينها تباينًا تامًا في الذاتيات والعوارض، فالقرد قرد منذ أوجده الله في هذا العالم لم يتحول إلى حيوان آخر فيما مضى، ولن يتحول إليه في المستقبل ولو مضى عليه ملايين السنين،

والإنسان إنسان كذلك، والفرس فرس وهكذا كل ما في هذا العالم من أنواع الموجودات لا يمكن نوع منه أن ينقلب تلقائيًا إلى نوع آخر يباينه اللهم إلا ما جاء في القرآن من مسخ بعض اليهود قردة وخنازير وهذه حالة نادرة جعلها الله عبرة ونكالًا كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾(البقرة: 66)، على أن أولئك الممسوخين لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام ثم ماتوا ولم يتركوا نسلًا من جنس ما مسخوا إليه والعجيب أن بعض المعاصرين وقف في كتابه قصص الأنبياء من هذه النظرية السخيفة موقف التردد والخور، وأبدا استعداده لتأويل القرآن إذا ثبت في الأدلة القاطعة بل فتح باب التأويل مقدمًا حيث صرَّح بأن نصوص القرآن (الظاهرة) تدل على أن أصل الإنسان آدم ولم يكن قردًا إلخ فقوله (الظاهرة) فتح لباب التأويل على مصراعيه وهذا منه يدل على فقد إيمانه بعقله وضعف ثقته بالقرآن حيث توجس أن يأتي يوم تثبت فيه تلك النظرية وتصدم بنصوصه ولكنا نؤمن جازمين أنه لن يأتي يوم يكون لها فيه نصيب من الورثة إلا إذا صار العلم جهلًا والنور ظلامًا والنهار ليلًا.

أصل نظرية النشوء والارتقاء

قال العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه: "اعلم أرشدنا الله وإياك أن نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غايته، وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأولًا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدًا من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدًا وهابطًا ويستحيل بعض الأوقات والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل إلى أن قال: ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا"ا.هـ. وراجعه في مبحث الكلام على حقيقة النّبوة وهو يقصد به إلى ترابط العالم وتناسقه في ترتيب بديع واتصال عجيب يدل على وحدته وتماسك أجزائه فأخذه داروين ومسخه إلى ما ابتدعه على أن بعض العلماء الألمان ادعى أن القرد إنسان تقهقر وليس الإنسان قردًا مترقيًا وجعل أدلة داروين أدلة له على صحة نظريته

وقد يكون هذا أقرب إلى الصواب، فإن الله أخبر بأنه مسخ اليهود الذين اعتدوا في السبت قردة، وإن كنا لا نقر هذه النظرية ولا تلك.

مسائل منثورة

الأولى: تقدم في الحديث الذي رويناه عن صحيح مسلم أن آدم خلق يوم الجمعة، ومعنى ذلك أن الله تعالى بعد أن صوره من طين وتركه حتى صار حمأ مسنونًا، نفخ فيه الروح يوم الجمعة، وفيها أيضا أهبط من الجنة، قال ابن عباس: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس صححه الحاكم وقال موسى بن عقبة مكث آدم في الجنة ربع النهار وذلك ساعتان ونصف وذلك مائتا سنة وخمسون سنة، فبكى على الجنة مائة سنة، رواه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد[1].

الثانية: كان طول آدم ستين ذراعًا وعرضه سبعة أذرع، ثم لم يزل الخلق يتناقص شيئًا فشيئا حتى وصل إلى الأحجام المشاهدة الآن، ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعًا فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن ﴾ وفي مسند أحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ كان طول آدم ستين ذراعا في سبعة أذرع عرضًا ﴾ وأما ما جاء في بعض الآثار أن آدم لما أهبط كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، فحطه الله إلى ستين ذراعا، فلا يعول عليه، لمخالفته للحديث الصحيح.

الثالثة: تقدم في الحديث الذي رويناه عن الصحيحين أن آدم عاش ألف سنة، وأنه وهب من عمره أربعين سنة لداود، فلما جاءه ملك الموت، قال له بقي من عمري

---

[1] لكن قال ابن جرير: "ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة – الساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر– فمكث مصورًا طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم"ا.هـ.

أربعون سنة، ونسي هبته السابقة، فأكمل الله له الألف، وأبقى لداود المائة، ولم يرد في عمر حواء حديث ولا أثر، ويظهر أنها عاشت ألفا أو ما يقرب منها، وعاشت بعد آدم مدة لم يرد في تعيينها شيء يعتمد عليه، وفي تاريخ ابن كثير أنها ماتت بعده بسنة واحدة.

الرابعة: لم يتعرض القرآن الكريم ولا السنة الصحيحة لتعيين المكان الذي أهبط إليه آدم، وجاء في تعيينه أحاديث ضعيفة وآثار عن بعض الصحابة والتابعين لا بأس أن نشير إليها فروى الطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ نزل آدم عليه السلام بالهند فاستوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان، الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، مرتين، أشهد أن محمدًا رسول الله مرتين، فقال: ومن محمد هذا؟ قال: هذا آخر الأنبياء من ذريتك ﴾ حديث غريب منكر، وصح عن ابن عباس أن أول ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند، وروى ابن جرير والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: أطيب ريح الأرض الهند، أهبط بها آدم فعلق ريحها من شجر الجنة، صححه الحاكم، وجاء عن ابن عباس أيضا قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، فجاء في طلبها حتى أتى جمعا، فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا، وممن قال هبط بالهند جابر بن عبد الله، وابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، والسدي، وفي رواية عن ابن عمر قال: أُهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة، رواهما ابن أبي حاتم، وفي رواية ثالثة عن ابن عباس أن آدم هبط بدجناء أرض بالهند؛ رواها ابن أبي حاتم والحاكم، ودجناء بضم الدال وكسرها، يقال الجيم والحاء، يمد ويقصر.

الخامسة: قال ابن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث، وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان، وكانت وفاته يوم الجمعة، وتولت الملائكة تجهيزه ودفنه، روى عبدالله بن أحمد بإسناد صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: ﴿ إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له، فاستقبلهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعه الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم يا بني آدم ما تريدون؟ قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم، فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عني فإني إنما أتيت من قبلك، فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه فيه ثم حثو عليه، ثم قالوا يا بني آدم هذه سنتكم ﴾، واختلف في موضع دفنه قال ابن كثير: والمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند، وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة، وقيل: إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس، حكاه ابن جرير، وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم، ورجلاه عند صخرة بيت المقدس، وذكر أهل التاريخ أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة وشيث ولد له بعد قتل هابيل، واسمه هبة الله وكان نبيا فقد روى أبو ذر عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أنه أنزل عليه خمسون صحيفة ﴾ صححه ابن حبان.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الأعراف: 189-190) ليس المراد به آدم وحواء، وإنما المراد به

المشركون من ذريتهما، كما قال الحسن: عَنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، يعني ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾، قال أيضا: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين: ﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها ﴾، وإنما ذكر الله آدم وحواء أولًا توطئة وتمهيدًا لما بعدهما من الوالدين، فهو استطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾(الملك: من الآية 5) ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن؛ قاله ابن كثير، أما الحديث الذي رواه أحمد عن سمرة مرفوعًا: ﴿ لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره ﴾ فقد اعتمده كثير من المفسرين وحملوا الآية على آدم وحواء عليهما السلام، وأيدوه بما ورد في ذلك عن ابن عباس وأبي، وتلك غفلة منهم كبيرة، فالحديث – وإن حسنه الترمذي وصححه الحاكم– منكرٌ لا يصح لوجوه: **أحدها**: أنه روى من قول سمرة غير مرفوع كما قال الترمذي، رواه كذلك ابن جرير وغيره، **ثانيها**: كيف يقال كان لا يعيش لها ولد حتى سمته عبد الحارث، والله تعالى إنما أهبطهما إلى أرض لتكون لهما الذرية والخلف؟ **ثالثها**: تقدم في الحديث الصحيح من طرق عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة؛ ثم عرضهم على آدم، فقال أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك... الحديث ﴾، وهذا العرض كان في الجنة فكيف يتأتى بعد هذا أن يقبل آدم

وحواء قول الشيطان: لا يعيش لهما ولد إلخ؟ وهل هذا إلا تكذيب لخبر الله تعالى لا يليق صدوره من مطلق المؤمنين فضلًا عن أبوي البشر عليهما السلام، **رابعها**: أن الله تعالى قال: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وقال: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾، فسجل الله توبته وهدايته، فكيف يقع في حبالة الشيطان بعد أن اجتباه الله وهداه؟! **خامسها**: إنه لو فرض حصول هذا منهما لأخبر بتوبتهما منه كما أخبر بتوبتهما من الأكل من الشجرة الذي حصل نسيانًا، لكنه لم يخبر بتوبتهما لا في القرآن ولا في السنة، فهل معنى ذلك إنهما ماتا عاصيين بل مشركين؟!! من اعتقد ذلك فيهما فليس بمسلم، **سادسها**: أن إجماع المسلمين المستند إلى الأدلة القطعية منعقد على أن الأنبياء معصومين من الشرك وما يؤل إليه قبل النبوة وبعدها، لأنهم مفطورون على التوحيد، فكيف يقر آدم على شرك يقع في بيته تحت سمعه وبصره؟!! **سابعها**: أن قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ دليل على أن المراد ذرية آدم من المشركين واليهود والنصارى، والمقصود أن ذلك الحديث منكر بجميع طرقه وألفاظه، لا يصح رفعه إلى النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بل هو مأخوذ من الإسرائيليات، حدث به عن مسلمة أهل الكتاب: سمرة وابن عباس وأبي وغيرهم من التابعين.

السابعة: قيل أن آدم عليه السلام أول من قال الشعر[1]، وذلك حين قتل قابيل أخاه هابيل فبكى وقال:

---

[1] من الفوائد العروضية المتعلقة بهذه الأبيات ما ذكره ياقوت في معجمه حيث قال: حدثني شيخنا الإمام علم الدين القاسم بن أحمد الأندلسي قال حدثني شيخنا تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي قال: بلغني أن أبا سعيد السيرافي دخل على ابن دريد وهو يقول: أول من أقوى في الشعر أبونا آدم عليه السلام في قوله:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح

تغيرت البلاد ومن عليها فوجـه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقَلَّ بشاشة الوجه الصبيح

فأجابه إبليس لعنه الله:

تنحى عن البلاد وساكنـــها فبي في الخلد ضاق بك الفسيح
وكنت بها و زوجك في رخـــاء وقلبـك من أذى الدنيا مريـــح
فيما انفكت مكايدتي ومكري إلى أن فاتك الثمن الربيـــح

رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس، قال الحافظ ابن كثير: "وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم قال كلامًا يتحزم به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا"ا.هـ. المقصود أن نسبته إلى آدم غير صحيحة.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(الأعراف: 172-174)، هو – كما قال الزمخشري والبيضاوي وأبو حيان– من باب التمثيل، ومعنى ذلك أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه سبحانه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال: ألست بربكم، وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك،

=فقال أبوسعيد: يمكن إنشاده على وجه لا يكون فيه إقواء، فقال وكيف ذلك؟ فقال: بأن ينصب بشاشة على التمييز ويرفع المليح بقل ويكون قد حذف التنوين لالتقاء الساكنين كما حذف في قوله:

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

قال: فرفعني حتى أقعدني بجانبه، قلت: الإقواء اختلاف الروي باختلاف حركة الاعراب كما هنا، فلفظ قبيح مرفوع ولفظ المليح مجرور وهو من العيوب الشعرية كالإبطاء و التضمين.

وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كلام العرب، ونظيره قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾، ومعلوم أنه لا قول ثَمَّ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى، وقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة كراهة أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين لم ننبه عليه؛ أو كراهة أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم؛ فاقتدينا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الاقتداء بالآباء وتقليدهم، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم، واستعير كون أخذ الميثاق بالتوحيد من ظهور ذريات بني آدم، كأن الميثاق لصعوبته؛ وللارتباط به والوقوف عنده شيء ثقيل يحمل على الظهور، وهذا من تمثيل المعنى، أما الحديث الذي في الصحيحين عن أنس أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﷺ يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي ﷺ فقال عياض وغيره: "يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... الآية ﴾، فهذا الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم؛ فمن وفى به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوف به فهو الكافر"ا.هـ. قلت: وهذا يفيد أن الميثاق أخذ على ذرية آدم وهم في صلبه، والذي دعا عياضًا وغيره إلى حمل الحديث والآية على هذا المعنى ما رواه أحمد والنسائي عن ابن عباس عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﷺ إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنفرها بين يديه، ثم كلمهم قبلًا قال: ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا

غافلين أو تقولوا ... إلى المبطلون ﴾ صححه الحاكم، وما رواه ابن جرير وغيره عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: ﴿ أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قالوا: بلى، قالت الملائكة: ﴿ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ﴾ ولكن هذين الحديثين معلولان، فحديث ابن عباس اضطرب راويه كلثوم بن جبر فرفعه مرة، ووقفه أخرى، والوقف أكثر وأثبت كما قال الحافظ ابن كثير إذ رواه كذلك عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس أيضًا، فهو من كلامه لا من كلام النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث عبد الله بن عمرو في سنده أبو محمد الجرجاني — واسمه أحمد بن أبي طيبة– قاضي قومس، كان مع زهده يحدث بأحاديث كثيرة غرائب كما قال ابن عدي، وقول أبي حاتم: يكتب حديث، لا يفيد اعتماده، إذ يقصد كتابة حديثه للاعتبار لا للاحتجاج، ثم إن هذا الحديث روي من طريقين ثابتين عن عبد الله بن عمر موقوفًا عليه أي من كلامه، وعندي أن حديث أنس السابق يشير إلى ما رواه مالك ومن طريقه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى... الآية ﴾، فقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنها فقال: ﴿ إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ﴾ فقال رجل: ففيما العمل يا رسول الله؟ قال: ﴿ إذا خلق الله العبد للجنة

استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار ﷺ حسنه الترمذي، وللحديث طرق وشواهد، وهو يفيد أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار من غير أن يشهد عليهم وهذا تخصيص لعموم الآية، لأنها دالة كما سبق على أن الله نصب الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، فبين هذا الحديث أن تلك الأدلة إنما ينتفع بها ويهتدي إليها من كان من أهل الجنة الذين ميزهم الله حين استخرجهم من صلب آدم، وقال: خلقت هؤلاء للجنة، أما الطائفة الأخرى التي قال الله فيها: خلقت هؤلاء للنار، فلا ينتفعون بأدلة التوحيد بل يصدون عنها ويأبون قبولها، وهم الذين يقول الله للواحد منهم يوم القيامة: لو كان لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؛ فيقول: نعم، فيقول الله أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ألا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي، جعل أهليته للنار، واستعداده لها وهو في صلب آدم بمنزلة الإباء والامتناع فكأنه سبحانه طلب منه التوحيد، وكأن الكافر أبى إلا الشرك، فهو من باب تمثيل المعنى وتصويره على وزان ما سبق في الآية، وبهذا يزول الإشكال، وقال الحافظ ابن كثير – بعد أن أورد جملة من الأحاديث في استخراج الذرية من صلب آدم – ما نصه فهذه الأحاديث دالّة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمر، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: أن المراد بهذا الإشهاد – يعني في الآية– إنما هو فطرهم عل التوحيد وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾

ولم يقل من ظهره ﴿ ذرياتهم ﴾ أي جعل نسله جيلًا بعد جيل، وقرنًا من بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ وقال: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ وقال: ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالًا، والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا... الآية ﴾، وتارة تكون حالًا كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا؛ أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم بالإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال – بأن الإشهاد حقيقي– لكان كل أحد يذكره "ليكون حجة عليه"ا.هـ.

التاسعة: في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثًا ﴾ ولهذا الحديث عشرة طرق عن أبي هريرة، ورواه عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم غير أبي هريرة عمر، وجندب بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، قال الحافظ ابن عبد البر: "هذا الحديث ثابت بالاتفاق، رواه عن أبي هريرة جماعة من التابعين وروي عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه أخرى من رواية الأئمة الثقات الأثبات"ا.هـ. وله ألفاظ كثيرة في الكتب الستة ومسند أحمد وغيرها، وفيه إشكال وحاصله أن يقال: كيف حكم النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لآدم بالحجة مع أنه احتج بالقدر، والاحتجاج بالقدر

لا يفيد حسبما دل عليه القرآن والسنة المتواترة، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة **منها:** قال القرطبي: "إنما غلبه بالحجة لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه له على ذلك نوع جفاء، كما يقال: ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي، حتى كأنه لم يكن فلا يصادف اللوم من اللائم حينئذ محلًا"ا.هـ. قال الحافظ ابن حجر: "وهو محصل ما أجاب به المازري وغيره من المحققين، وهو المعتمد"ا.هـ.، **ومنها:** قال الداودي في شرح البخاري: "إنما قامت حجة آدم لأن الله خلقه ليجعله في الأرض خليفة، فلم يحتج آدم في أكله من الشجرة بسابق العلم، لأنه كان عن اختيار منه، وإنما احتج بالقدر لخروجه، لأنه لم يكن بد من ذلك"ا.هـ. ويؤيد هذا ما رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد وغيرهما عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه ثم قرأ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

العاشرة: يؤخذ من قصة آدم عليه السلام أمور: **الأول:** أن حكمة الله تخفى على أقرب الخلق إليه، كما خفيت حكمة استخلاف آدم في الأرض على الملائكة؛ حتى اشتاقوا إلى معرفة الحكمة في هذا الاختيار، **الثاني:** أن عناية الله إذا توجهت إلى الشيء الحقير المهين خلعت عليه حلل البهاء وأهلته لرتبة الاجتباء، ألا ترى كيف توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذي خلق منه آدم فصيرته بشرًا سويًا، وجعلته مظهرًا لأسرار قدرته، وعلمه الواسع، بحيث اعترفت الملائكة بالقصور عن إدراك مداه، **الثالث:** أن طاعة المرأة تعقب الندم، ألا ترى إلى آدم عليه السلام حين وافق حواء على الأكل من الشجرة، وقع فيما وقع، وقد ورد في حديث ضعيف عن أنس مرفوعًا: ﴿ لا يفعلن أحدكم أمرًا حتى يستشير فإن لم يجد من يستشيره فليستشر امرأة ثم ليخالفها فإن في خلافها البركة ﴾ رواه ابن لال والديلمي، وروى العسكري عن عمر رضي الله عنه قال: "خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة"، وروى أيضًا عن معاوية قال: عودوا

النساء: لا، فإنها ضعيفة إن أطعتها أهلكتك، **الرابع**: أنَّ الإنسان – وإن سمت منزلته وعظمت رتبته– لا يخلوا من هفوة تقع منه، لنسيان يعرض له، أو تأويل يراه كما وقع لآدم عليه السلام، حيث أكل من الشجرة ناسيًا كما سجله القرآن الكريم أو متأولًا كما قال الكثير من العلماء، **الخامس**: إن وقوع المخالفة من العبد تجبر بالتوبة والإنابة إلى الله كما وقع من آدم فإنه حين اعترف وتاب، تاب الله عليه واجتباه وهداه، وهذه سنة الله مع العصاة من عباده يقبلهم إذا تابوا ويفتح لهم باب رحمته ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(الزمر: 53)، **السادس**: أن أصول الخطايا ثلاثة الكبر والحرص والحسد فالكبر هو الذي صَيَّر إبليس إلى معارضة الأمر بالسجود، والحرص هو الذي سبب خروج آدم من الجنة، والحسد هو الذي جرَّأ أحد ابني آدم على قتل أخيه، فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشر فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد، **السابع**: إن ترك الأمر أعظم عند الله من ارتكاب النهي، لأن آدم نهي عن الأكل من الشجرة فأكل منها فتاب عليه وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه، قال سهل بن عبد الله: "قال ابن القيم: هذه مسألة عظيمة لها شأن، وهي أنَّ ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوه عديدة، وذكرها فأوصلها إلى ثلاثة وعشرين وجهًا، **منها**: أنَّ ارتكاب ذنب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة، ولا يدخل الجنَّة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنى وسرق، **ومنها**: أنَّ الله سبحانه جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها، وجزاء المنهيات مثل واحد، وهذا يدل على أن فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهي عنه، ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدة، أو تساويا، **الثامن**: قال القشيري: "كل ما منع

منه، توفرت دواعي ابن آدم للاقتراب منه، هذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها، ونهي عن شجرة واحدة، فليس في المنقول أنه مد يده إلى شيء من جملة ما أبيح له، وكأنه عيل صبره حتى ضاق ما نهي عنه، هكذا صفة الخلق"ا.هـ.، **التاسع**: قال بعض أهل الإشارات: "الذي يليق بالخلق عدم السكون إلى الخلق وما زال آدم وحده بكل خير وبكل عافية؛ فلما جاءه الشكل والزوج، ظهر إتيان الفتنة، وافتتاح باب المحنة، وحين ساكن حواء أطاعها فيما أشارت عليه من الأكل فوقع فيما وقع"ا.هـ.، **العاشر**: قال بعض العلماء: "لما سَلِمَ لآدم أصل العبودية، لم يقدح فيه الذنب: ﴿ ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيء لأتيتك بقرابها مغفرة ﴾ ولما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصدًا لمخالفته، ولا قدحًا في حكمته، عَلَّمَه كيف يعتذر إليه؟ ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾"ا.هـ.، ونختم بهذه القصة بكلمة – لابن القيم الحافظ– تشتمل على إشارات لطيفة وحكم صوفية شريفة، قال في كتاب (الفوائد): "تأمل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض، ونبه الملائكة على فضله وشرفه، ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وتأمل كيف وسمه بالخلافة؟ وتلك ولاية له قبل وجوده، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته، فلما صوره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة، لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب، رمى به في طريق ذل ﴿ لَمْ يَكُنْ شَيْءً ﴾ لئلا يعجب يوم ﴿ اسْجُدُوا ﴾ كان إبليس يمر على جسده فيعجب منه، ويقول لأمر قد خلقت، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: لأن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليّ لأعصينك، ولم يعلم أن هلاكه على يده! رأى طينًا مجموعًا فاحتقره فلما صُوِّر الطين صورةً دبَّ فيه داء الحسد فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد فلما بسط له بساط

العز، عرضت عليه المخلوقات، فاستحضر مدعي ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ ﴾ إلى حاكم ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ وقد أخفى الوكيل عنه بينة ﴿ وَعَلَّمَ ﴾ فنكسوا رؤوس الدعاوي على صدور الإقرار، فقام منادي التفضيل في أندية الملائكة ينادي ﴿ اسْجُدُوا ﴾ فتطهروا من حدث دعوة ﴿ وَنَحْنُ ﴾ بماء العذر في آنية ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ فسجدوا على طهارة التسليم، وقام ابليس ناحية لم يسجد، لأنه خبث وقد تلون بنجاسة الاعتراض، وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير لأنها عينية، فلما تم كمال آدم قيل لابد من خال جمال على وجه ﴿ اسْجُدُوا ﴾ فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية في الذل، يا آدم لو عفى لك تلك اللقمة لقال الحاسدون: كيف فُضِّلَ ذو شره لم يصبر على شجرة؟!! لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل ﴿ هل من سائل؟ ﴾ ولا فاحت روائح ﴿ ولا خلوف فم الصائم ﴾ فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شَرَه، يا آدم ضحكك في الجنة لك وبكاؤك في دار التكليف لنا، ما ضر من كسره عِزّي، إذا جبره فضلي، إنما تليق خلعة العز ببدن الانكسار ﴿ أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ﴾ ما زالت تلك تعاوده حتى استولى داؤه على أولاده، فأرسل إليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدي أطباء الوجود ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فحماهم الطبيب بالمناهي، وحفظ القوة بالأوامر، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة، فجاءت العافية من كل ناحية"ا.هـ. وهي كلمة في غاية الحسن، والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

تنبيه

حينما أعرضنا لقصة هابيل وقابيل؛ فاتنا أن ننبه على مسألة تتعلق بها وهي: ما رواه الثعلبي في تفسيره عن معاوية بن عمران قال: سألت جعفر الصادق عليه السلام أكان آدم يزوج ابنته من ابنه؟ فقال: "معاذ الله، وإنما زوج قابيل جنية وزوج هابيل حورية فغضب قابيل فقال يا آدم يا بني ما فعلته إلا بأمر الله، فكان من خبرهما ما قصه الله في القرآن" قال الحافظ ابن حجر: "إسناده واه ولا يثبت هذا عن جعفر ولا عن غيره، ويلزم منه أن بني آدم من ذرية إبليس لأنه أبو الجن كلهم، أو من ذرية الحور العين، وليس لذلك أصل ولا شاهد"ا.هـ. وهو واضح والله أعلم.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبيين الطاهرين

آل البيت - فلسطين

المركز الوطني للبحوث والدراسات

غزة - فلسطين

تلفون: 0097282820422

فاكس: 0097282820433

جوال: 00972599603197

بريد إلكتروني: info@alalbait.ps

موقع إلكتروني: www.alalbait.ps